صهيل الخيول الكنعانية

وليد رباح

الكتاب : صهيل الخيول الكنعانية (رواية)

المؤلف : وليد رباح

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ٥٩٦٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 299 - 1

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف للفنان الفرنسى : أوجين ديلاكروا



صهيل الخيول الكنعانية

رواية

وليد رباح

إهـداء

إلى من علمني كتابة الحرف:

غطاس صويص (أبو نضال) ، حنَّا مقبل ، رشاد أبو شاور ، محمود درويش ، أحمد دحبور ، يحيي يخلف ، عبد الكريم الكرمي ، سلمى الخضراء الجيوسي ، زوجتي أنعام المصري...

أهدي هذه الرواية: صهيل الخيول الكنعانية.

الليلُ يلفظ أنفاسه، وسمحون الذي يسوس بني كنعان ويحميهم يطالع في النجم صورته، ولا تغفل عينه عن الترقب لحظةً. القصر كبيرٌ، والحُرَّاس تلفعوا بمعاطفهم، وأنفاسهم تعطي بعض الدفء للوجوه الذابلة، والحِراب تُطلُّ من باب القصر غاديةً رائحةً بتثاقلٍ وخيبةٍ، فالخبر الذي تناقله الرُّعَاة عن تهديم أريحا وقتل رجالها وسبي نسائها؛ لم يزلْ طازجًا بعد...

قال الرُّعاة: جاء العبريون إلى أريحا، يقودهم يوشع بن نون، فاخترقوا حصونها وأعملوا السيف فيها.

وفي مساء ذات اليوم طاف بأورسالم طائفٌ يصرخ في الناس أن استعدوا؛ فجموع يوشع تزحف إليكم...

وهكذا وقفت المدينة على رجليها، وزحفت نحو قصر الملك سمحون، تطلب الرأي والمشورة.

جمع سمحون الملكُ خاصتَه وقال: بالسيف وحده يحيا الإنسان، فما رأي كنعان؟ بعضهم هزَّ رأسه موافقًا، والبعض الآخر فكَّر أن يهرع إلى بيته لجمع جواهره؛ ليخفيها في التراب.

قال سمحون مرةً أخرى: بالسيف وحده نبني الممالك، فما رأي كنعان؟
البعض وضع يده على مقبض سيفه وهزَّه بقوةٍ، والبعض الآخر وضع يده على حزامه الذي يخيط فيه القطع الذهبية والفضية، وهزَّه بقوةٍ أيضًا.

صرخ سمحون بأعلى صوته: من يرد السيف؛ يرده السيف، فما رأي كنعان؟
البعض صاح بأعلى صوته بأنه يريد السيف، والبعض الآخر صاح بصوتٍ ضعيفٍ بأنه يريد الحيف؛ لأن دمه غالٍ لا يُعوَّض.

وقبل أن ينْفضَّ الجمع إلى مساكنهم جاء؛ لا أحد يعرف من أين وكيف؛ أسماله تستر بعض جسمه، يربط على وسطه جلد نمرٍ تمزق بفعل الزمن؛ فكشف عن بعضٍ من لحمه... ألقى بالتحية ونظر إلى وجوه القوم، فألفاها شمعيةً؛ فقال: أيهاً الملك العظيم سمحون، دع عنك هؤلاء، وانظر من شرفة القصر إلى قومك.

اهتزَّ جسد سمحون، ولكنه كظم غيظه وقال: من أنت؟ وماذا تريد؟ كيف تجرأتَ على تخطي الحراس واقتحام قصري في وقتٍ نعقد فيه اجتماعًا خطيرًا سيقرر مصير البلاد؟!

قال الشاب بأدبٍ جمٍّ : سيدي العظيم سمحون ، إنني من عامة بني كنعان ، والحراس جلُّهم من العامة؛ وهكذا تخطيتُ الحرس إليكَ.

قال الملك: ما اسمكَ أيها الشاب؟ وماذا تريد؟

قال الشاب : أنا شكيم ، فلاحٌ من حبرون أورسالم ، يحب أرضه ويهوى الزرع والنبات وقنوات المياه ، أمَّا ما أريده فليس سوى أن تلقي نظرةً على قومك من شرفة القصر.

مدَّ أحد الخاصة يده على مقبض سيفه وامتشقه حتى نصفه ، وبإشارة من سمحون أعاده إلى غمده والغضب يسرح في عينيه.

ابتسم شكيم وقال: ليت هذا السيف يجرَّد في وجه العدو كما جرَّدته في وجهي! الحقيقة أنني فلاحٌ ، تبتسم لي الأرض كلما داعبتها بمنكاشي ، ولكني لا أجيد استعمال السيف. إن كنت ترغب في مباراتي ؛ فلنتسابق أيّنا ينهي حصاد أرضه أولاً.

مدَّ الخاص جدًّا والمقرب جدًّا من سمحون يده ثانيةً إلى سيفه وصرخ بحدةٍ: هذا الصعلوك يسخر منا أيها الملك العظيم؛ دعنى أؤدبه.

لكن سمحون أشار للخاص بأن يجلس دون أن يفوه بكلمةٍ؛ ففعل.

قال سمحون: أنتم تجلسون هنا، وليرافقني شكيم إلى الشرفة.

نظروا إلى وجوه بعضهم البعض نظراتٍ سريعةً، أمَّا شكيم فقد ركع على الأرض اللامعة وقال: في خدمتك أيها الملك العظيم. ثم قفز وسار إلى جانب الملك نحو الشرفة.

أطلَّ سمحون من الشرفة فرأى أورسالم قد زحفتْ كلها إلى قصره، كلهم يحملون أشياءً في أياديهم: السيوف، مناكيش الأرض ، العصي، والمناجل.
ابتسم سمحون وأشار إليهم بيده أن يصمتوا لحظاتٍ فأطاعوا. قال سمحون : بالسيف وحده يحيا الإنسان ، فما رأي كنعان ؟ اهتزَّت أورسالم كأنما زلزلت الأرض زلزالاً شديدًا، ارتفعت السيوف والمناجل والعصي في الهواء.

وفي غضون ذلك حدثت أشياء كثيرة : هرع بعض الخاصة إلى منازلهم لإخفاء جواهرهم دون أمر من الملك، وتحسس بعضٌ من الخاصة أحزمتهم التي تحوي القطع الذهبية والفضية، ثم انصرفوا من القصر راكضين، وعندما عاد الملك

وشكيم إلى القاعة لم يكن هناك إلا منظِّم الزراعة الذي لم يكن يحمل سيفًا. اتسعت ابتسامة سمحون وقال لشكيم: هل حقًّا لا تجيد استعمال السيف أيها الفلاح، أم أنك كنت تمازح القائد أو تهزأ به؟

قال شكيم: سيدي الملك العظيم سمحون، حقًّا أنا لا أجيد استعمال السيف؛ فأنت تعلم - أو لا تعلم - أن الخاصة سمحتْ لنا باقتناء السيوف دون أن نستخدمها؛ وقد علاها الصدأ، ونحن بحاجةٍ إلى سيوفٍ جديدةٍ.

قال سمحون: منذ الليلة تطوف أزقَّة أورسالم وتنادي في الناس؛ كي يكون السيف خبزهم.

وهكذا غادر شكيم القصر وصوته يصل إلى مسامع سمحون: أيها الناس، العبريون جاءوا من الصحراء إليكم غازين، أعملوا السيف في أريحا، وغدًا دوركم. يقول لكم الملك العظيم سمحون: "بالسيف وحده يحيا الإنسان".

وهكذا انصرف الليل وأورسالم تضيء منازلها، وطَرَقَاتُ شحذ السيوف وصنعها تصل إلى أذني سمحون، الذي يسوس بني كنعان ويحميهم؛ فيبتسم وتتسع ابتسامته ويتحسس سيفه بحنوٍّ.

نظر سمحون فلم يجد غير الحُرَّاس. كانت الشمس خارج القصر تبتسم لسهول القمح برقةٍ ووداعةٍ. جمع أطراف ردائه ووضعها في حزامه، ثم خلع تاجه المرصَّع بالجواهر وألقاه في صندوقٍ خشبيٍّ قديمٍ.

صفق مراتٍ ومراتٍ فلم يجبه أحد، ثم اقتحم مخدع ابنته وهو يصرخ بجنونٍ طالبًا أن يعطيه أحدهم عُدَّة الحرب التي تنام في مستودع القصر منذ زمنٍ. فاقت ابنته من نومها، فهرعت إليه واحتمت بردائه فهدأ. نادت على وصيفتها فلم تسمع جوابًا سوى طرقات شحذ السيوف التي كانت تتسرب عبر نوافذ القصر وأبوابه.

وهكذا تركت (حورا) أباها في حيرته وهرعت إلى مستودع القصر؛ كي تنفض الغبار عن عُدَّة الحرب وتحملها إليه. وهناك وقفت حائرةً لا تدري ماذا تصنع. كانت العُدَّة تلمع في عينيها كأشعة الشمس، نظيفةً لا غبار عليها، كسوة الصدر محلاةٌ بنقوشٍ كأنما كُتبت لساعتها، السيف يجرح من يحدِّق فيه، زرد الحديد ملتفٌّ حول كسوة الصدر لحماية سمحون من ضربات الأعداء.

وجدت حورا نفسها تقترب من عُدَّة الحرب بتؤدةٍ ، وعندما لمستها سمعت ضحكةً هامسةً من خلفها فارتجفتْ ، لكن شكيم طمأنها : أنا شكيم ، فلاحٌ من حبرون، يحب أرضه ويهوى الزرع والنبات وقنوات المياه. لا تجزعي أيتها الأميرة ؛ عُدَّة الحرب جاهزةٌ وسأنقلها للملك.

خافت حورا ووضعت كفها على صدرها ، وأخذت تتراجع خطوةً خطوة. قال شكيم: لا تجزعي أيتها الأميرة؛ أنا الذي يطعمك القمح من أرضه، وتجري قنوات المياه فيها كموج البحر.

لكن حورا توجهت نحو الباب وأطلقت ساقيها للريح وهي تصرخ. جاء الملك مسرعًا عاري الصدر، يرتدي لباس العامة، تنقصه عُدَّة الحرب، فدفنت وجهها في صدره ، ونظر إلى حيث تشير ، فرأى شكيم يحمل عُدَّة الحرب الثقيلة مبتسمًا كشروق الشمس.

قال شكيم: عذرًا أيها الملك العظيم؛ لقد أفزعتُ الأميرة. وجدتُ من الواجب أن أهيئ عُدة الحرب بعد أن رحل الخاصة كلهم من حولكَ.

قال الملك: ولكنكَ تأتي دون استئذانٍ، فكيف تدخل دون أن يراكَ أحد ؟!

- إنني من العامَّة يا مولاى، وحُرَّاسكَ أيضًا من العامَّة.

تركتْ حورا صدر الملك ونظرتْ إليه. قال الملك مبتسمًا: هذا شكيم أيتها الأميرة؛ فلا تخافي.

قال شكيم : وهذا سمحون الملك العظيم الذي رمى بالرداء جانبًا ليعتمر عدة الحرب؛ فلا تخافي.

عادت البسمة إلى وجه حورا النظيف ، وتقدمتْ نحو شكيم ، فضحك الملك وحمل عدته وانصرف... اقتربتْ من شكيم ووضعتْ كفها على شعر صدره الكثِّ وارتجفتْ... قال لها رأسها: طوله كنخيل أريحا، أمَّا جسده فكالبرج الذي بُنيَ في بابل قبل عقودٍ، لحيته مثل شجر الكافور، أمَّا ما يحمله جسمه من قوةٍ فذلك علمه عند سارح/ إله الزراعة والري.

قال لها شكيم من خلال بريق عينيها: أنا شكيم الذي يحب أرضه ويهوى الزرع والنبات وقنوات المياه ويطعمك القمح من أرضه.

قالت له الأميرة مبتسمةً: ألا تهوى شيئًا آخر يا شكيم؟
- لا أهوى شيئًا آخر سوى تعلم استعمال السيف.
- فقط؟
- الآن فقط، أمَّا ما يأتي به الغد فلا أدريه.

ابتعدت عنه الأميرة وأخذت تحدِّق فيه بنهمٍ.

جاء الملك يرتدي عدة الحرب، وتمخطر في مشيته وهو بكامل زينته؛ فلفتَ إليه نظر شكيم الذي صاح من الدهشة: الآن فقط تزرع أورسالم أرضها وتسقي زيتونها وتزوج بناتها دون خوفٍ. ثم استلَّ من حزامه شبابةً قصيرةً وأخذت أنامله تداعب شبابيكها الصغيرة بحنوٍّ، وغنى:

الآن تبتسم الأميرة، ويبني الأطفال بيوتًا من الرمل على شاطئ البحر، الآن يعْتلونَ أحصنتهم الخشبية، ويقول المنجل للحصاد: نعم، وتقول القُبَرَةُ: ها قد جاء موسم القمح، وتختفي بين غماره... الآن تشرق شمس المدينة العظيمة، وترقص النجوم للفلاحات أثناء الحصاد.

ثم غادر شكيم، فابتسمت الأميرة وابتسم الملك، وصوته يصل إلى مسامعهما:
- يا أهل أورسالم، يا أهل المدينة، العبريون يملأون جرارهم من نهر أريحا على ظهور الناجين من المذبحة. يقول لكم الملك العظيم سمحون: "بالسيف وحده يحيا الإنسان."

• • • •

أورسالم نائمةٌ، بيوتها خلف السور، لكن الحياة تمور فيها. البيوت المقببة الفارهة تغرق في الصمت والوحشة، لا صوت ولا ضجيج. وكلما اقتربت خطوات سمحون من بيوت الطين ازداد سماعه لطرقات السيوف وصراخ المتسابقين. استوقفه صوتٌ لم يستطع تمييز صاحبه جيدًا :

- فلنتبار أيُّنا يستطيع صنع عددٍ من السيوف أكثر من الآخر.
- لكنك فلاحٌ؛ لا تقوى على مباراتنا.
- ليكن ذلك.
- الخاصة منعتكم من ذكر السيوف حتى في مجالسكم.
- لكننى فلاحٌ، أسكن أرضًا، قليلون سُكَّانها، لا يسمعني أحدٌ عندما أغازل سيفي ، فهلا باريتنا!

وازدادت الطرقات عنفًا، واتسعتْ خطوات الملك، وكلما أوغل بين بيوت الطين لفحته حرارة النار التي تجعل كتلة الحديد مثل الجمر قبل أن تُطرق وتصبح سيفًا.

قالت فتاةٌ بصوتٍ رقيقٍ: لن تملكني قبل أن تنهي شحذ السيف كما أرغب.
قال فتىً بصوتٍ متوحشٍ: لقد التصق لحم يدي بالمطرقة.
ضحكت الفتاة، قالت: بعضٌ من ريقي يعيد إلى راحتك نضارتها فهلا واصلت العمل!.
تأفف الفتى وازدادت طرقاته عنفًا.

اتسعتْ خطوات الملك، وعندما اجتاز شِبَّاكًا صغيرًا عاد ثانيةً ليصغي.

قالت امرأةٌ لزوجها: ما عساكَ أن تفعل؟ إن الحبال التي نلفُّ بها مقابض السيوف قد فرغتْ؛ لم يعد لدينا شيءٌ منها.
قال الزوج: نؤجل العمل إلى الغد، فنشتري حبالاً جديدةً.
قالت الزوجة: لا تنس أننا لا نملك القمح الذي نبدِّله بالحبال.
قال الزوج: إذن نتوقف حتى نتدبر الأمر.
قالت الزوجة: بل نواصل؛ ألا ترى جدائلي طويلةً؟ يمكن أن نستفيد منها.

وغادر سمحون مسرعًا عندما سمع صوت المقرض وهو يقص الشعر بخشونةٍ.

كانت دموع الملك تسيل فيترك لها العنان سابحةً إلى العنق، وعندما شعر أن قدميه قد تقرحتا من المسير عاد من نفس طريقه.

قال الفلاح: أترون؟ قد صنعت ثلاثة سيوفٍ في الوقت الذي لم تصنعوا فيه غير سيفٍ واحدٍ لكلٍّ منكم. سيكون الرهان غدًا على صاعٍ من القمح لمن يفوز.

قال رأس الملك: هذا صوت شكيم. وقال فمه: أيها الفلاح، أين أنت؟ اخرج إليَّ حالاً.

هرع شكيم إلى الملك وقال: أهذا أنت يا مولاي؟ وفي عُدَّتِكَ الحربية؟! الآن فقط، تزرع أورسالم أرضها، وتسقي زيتونها، وتزوِّج بناتها دون خوفٍ.

ثم سار شكيم خلف الملك وهو يصيح:
- يا سُكَّان أورسالم الخالدة، أيها الكنعانيون الغرباء، هذا سمحون الملك العظيم يطوف الشوارع في عُدَّتِه الحربية.

كانت الموجات تتدافع خلف الملك، وعند وصولهم إلى البيوت المقببة الفارهة تسلم شكيم من يد الملك مشعلاً، وأضرم النار في أحد البيوت، فتبعته أورسالم كلُّها تحمل المشاعل... وهكذا تحول الحي الفاره إلى أكوامٍ سوداءَ تعاف العينُ رؤيتها...

أمَّا ما حدث بعد ذلك... وقف أهل سكان أورسالم في باحة القصر ورفعوا سيوفهم الجديدة نحو الفضاء.

قال رأس الملك: ها قد اختفت العصي ومناكيش الزراعة.
وقال رأس شكيم الذي يغرق في بحر أهالي أورسالم: قد صنعتُ اليوم ثلاثة سيوفٍ وغدًا يومٌ آخر.
وقالت حورا: أين أجده بين هذا البحر المتلاطم؟
وقال أهالي أورسالم بصوتٍ واحدٍ: بالسيف وحده يحيا الإنسان.
ورددوها مراتٍ ثلاث.

• • • •

ومضت ليالٍ أخرى ، وسمحون الذي يسوس بني كنعان ويحميهم يطالع في النجم صورته ولا تغفل عينه عن الترقب لحظةً ، إذا ما رأى حارسًا في القصر ذبلت عيناه ؛ تسلَّم عنه الحراسة ، وإن جاء وقت الطعام ؛ رفس المائدة المزينة بالأطايب وشارك الحُرَّاس طعامهم، وإن اشتكى أحدهم سوء الحال وكثرة العيال؛ نفحه بما يرضيه.

ومضت ليالٍ وليالٍ ، وسمحون يسرِّح نظره في الغيم المتجه إلى أريحا ، فيسمع خطواتٍ خلفه، فينهض ويده على مقبض سيفه.

- أهذا أنت يا شكيم؟ ومنظم الزراعة أيضًا ؟!

قال المنظم : نحن في خدمة الملك ، شكيم يصنع السيوف ، والمنظم يوجه الناس إلى بناء القنوات؛ كي يأتي الموسم مربحًا.

قال شكيم : الذهب في خزائن مولاي وهو مكدَّسٌ لا يجدي. لقد جاء الذهب من البيوت المقببة التي حرقناها ، فهلا تحول الذهب إلى سيوفٍ في أيدي فقراء أورسالم!

قال سمحون مبتسمًا: ماذا ترى أيها الفلاح؟

قال شكيم: نذهب إلى مصر ، فنستبدل النحاس بالذهب.

وقال المنظم: ونذهب إلى سوريا، فنستبدل القمح بالذهب.

ضحك سمحون وقال : أمَّا أن تذهبوا إلى سوريا لجلب القمح فهو مفيدٌ ؛ أمامنا من السنوات العجاف ما لا يعلمه أحد ، ولكن هل يستبدل العاقل النحاس بذهبه أيها الفلاح؟!

قال شكيم: فلنطور سيوفنا يا مولاي، النحاس أصلب وأقوى.

قال رأس الملك: هذا الفلاح يفكِّر، والتفكير يقوده إلى تمييز الخطأ من الصواب.

ثم نادى بأعلى صوته فجاءت حورا.

قال الملك : أنت يميني وسيفي ، أنت مدبِّرة القصر وسيدته ، ومفاتيحه وشوؤنه بين يديك؛ يقول هذا الفلاح إن النحاس خيرٌ من الذهب، فما رأيك؟

قالت الأميرة: في الحرب نعم، أمَّا في السِّلْم فلا.

قال الملك: بل في الحالين نعم.

قالت الأميرة : سيوف النحاس أقوى وأمضى. الفلاح يقول الحق. لقد سمعت مقالته وإني إلى جانبه.

وتلاقت عينا شكيم بعينيّ حورا فتحركتْ أعمدة القصر طربًا ودقت آلاته الموسيقية دون أن يلمسها أحد ، كل ملابسها المعلقة على المشاجب رقصتْ ، أخذ قلبها يغدو ويروح على ضفاف جداول الغابة ، وأخذ قلبه يقفز من مكانه كعصفورٍ وليدٍ يدور في عشه.

قال الملك : إذن فلنستمع إلى صوت النحاس ، وليرحل شكيم إلى مصر غدًا.

رحل شكيم إلى باب القصر بينما ظلَّ منظم الزراعة بين يدي سمحون ، يحدِّثه عن تخزين الحبوب وتطوير قنوات الري في مملكة بني كنعان.

ما كاد شكيم يخطو نحو الباب حتى امتدت إلى كتفه يدٌ رقيقةٌ أرغمته على التوقف.
قالت حورا : أترحل يا شكيم دون أن تودِّعني ؟!
قال : شُلَّت يمينه إن فعلها شكيم!
قالت حورا : أتحب شيئًا آخر غير عشقكَ للسيف ؟
قال شكيم : أصبح قلبي يركض خلف السيف وخلف حورا.
قالت حورا : وأصبح قلبي يتحفز كي يسبق حبي إلى مصر فيعانقها قبل أن يصل إليها.
ثم مدت يدها إلى شعر صدره الكث فسرت الرعدة في جسده ، ثم تنقلتْ راحتها إلى لحيته فتخلَّلتها بأصابعها وابتسمتْ.

كان الليل يضحك ، والحُرَّاس يضحكون ، حتى حجارة القصر كانت تبتسم...

سارا في الليل وأوغلا في العتمة ، استمعا إلى أهازيج صُنَّاع السيوف على أضواء شحوم البقر ، وعندما تعبا اعتليا ظهر تلَّةٍ مشرفةٍ على المدينة ، وجلسا هناك ينظران إلى الأضواء الخافتة التي تنبعث من الشبابيك الصغيرة.

قالت حورا : الليل جميلٌ ، والنبات يفرش بساطه خجلاً على وجه أورسالم الندي.
قال شكيم : الليل جميلٌ ؛ فافرشي لي جسدكِ بدل النبات ؛ كي أشق طريقي فيه دون عناءٍ.
قالت حورا : جسدي قمحُكَ الذي تزرعه على أرض حبرون.
قال شكيم وهو ينظر إلى وجه القمر : ابتعد يا هذا ولا تنظر إلينا هلا أجَّلت طلوعكَ إلى صباح الغد!

وجاءت غيمةٌ رقيقةٌ بيضاء فغطت وجه القمر.

مضت ليالٍ أخرى. وضع سمحون راحته على خده ونظر إلى السحب المتجهة نحو أريحا وقال: غدًا تقترب أورسالم من أريحا فتلامسها كما يلامسها السحاب المتجه إليها.

حاول أن يبتسم، لكنه ظلَّ حزينًا، ثم بكى وحدته وطفرت الدموع من عينيه فجاءت حورا على عجلٍ...

- أبتاه، أيها الملك العظيم، أتبكي وحورا إلى جانبكَ؟!

- أبكي فرحًا وحزنًا يا حورا؛ أريحا تستنجد بي ولا أستطيع الآن لها شيئًا، كان الخاصة يكدسون الذهب ويكسرون السيوف ويضعون حاجزًا بيني وبين بيوت أورسالم الطينية، واليوم أرى تلك البيوت وقد وقفت إلى جانبي متحفزة.

- أراكَ تنسى ذاكَ الذي حدَّق في عينيكَ أول مرةٍ.

- شكيم؟ لا أنساه ولو نسيتُ نفسي، غدًا يحمل النحاس على ظهور الجمال ويأتي من الصحراء فاردًا وجهه مثل شتاء الصيف.

- وغدًا يأتي فيحصد القمح على أرض أورسالم ناضجًا ممتلئًا كحبات الكرز.

- أما أنا، فقمحي أزرعه دون أن ينبت.

قفزت حورا واقفةً وقالت:

- أبتاه، البيوت الفارهة تحولتْ إلى أكوامٍ سوداء، ولم يبقَ غير البيوت الطينية.

- غدًا أهرع إلى بيوت الطين على قدميَّ، فأختار عروسًا ترضى بي، وعندها، سوف ينبت القمح في قصري من جديد.

فرحت حورا فرحًا طاغيًا، ثم وضعتْ يدها على كتف الملك وسقطتْ من عينيها دمعةٌ تلألأتْ في ضوء القمر، ثم غابتْ في ردهات القصر.

• • • •

كانت العروس تميس في غلائلها كقطعةٍ من الخزف، سيوف بني كنعان تحميها، وسمحون الملك يسير إلى جانبها مزهوًّا كأنما امتلك الدنيا واسترجع أريحا ثانيةً، وحورا تنثر الورد على وجه الأرض كأنما عادت أمها إلى الحياة.

وفي الصباح جمع سمحون الملك مهرة الصناع وطلب منهم أن ينقشوا وثيقةً على حجرٍ كبيرٍ في ساحة أورسالم الرئيسية :

(هذا ما قرره سمحون الملك بعد أن تزوج فتاةً من عامة بني كنعان : يفتح سمحون قصره مشاعًا لبني كنعان، يؤمونه متى يرغبون، ينامون فيه ويأكلون، يشاركون الملك سكنه وحياته، يصبح الملك من عامة بني كنعان، يظل حيث يظلون ويقاتل حيث يقاتلون).

وعند مدخل البيوت الطينية التي ينسرب إليها الزقاق كأفعى ضخمةٍ توقف وربط حصانه في حلقةٍ حديديةٍ بارزةٍ في سورٍ قديمٍ، ثم واصل سيره عبر البيوت.

كانت الشمس لم تزل في حضن السماء، والندى يرقد بخجلٍ على أكمام الزهر في المدينة المتحفزة، الحمير الواقفة على أبواب البيوت تمضغ التبن بتؤدةٍ ثم تنفخ مناخرها لطرد ذبابةٍ أو لإبعاد قشةٍ حشرتْ نفسها بين الفم والمنخار. بعضهم فاق بعد ليلٍ مرهقٍ صنع فيه عددًا من السيوف؛ فاعتلى حماره وانسرب عبر الزقاق ليصل إلى أرضه، البعض الآخر لم ينل جسمه بعدُ القسط الكافي من الراحة؛ فظل يرقد في فراشه، يحلم أن لا يأتي النهار سريعًا.

واصل سمحون سيره بتؤدةٍ، تحتضن عيناه البيوت بحبٍّ وشغفٍ يخفق قلبه مع كل تنفسٍ يصدر منها، وظلَّ يمشي حتى سمع لغطًا، فأصبحتْ خطواته حذرةً، واقترب.. كانت ثُلَّةٌ من حُرَّاس الليل تجتمع إلى نارٍ كادت أن تخبو، استرق الملك السمع...

قال أحدهم: أتدرون؟ كان كرهي للملك يحفزني في كل يومٍ أن أغرس حربتي في صدره كلما سار في حاشيته إلى حيث البيوت الفارهة.

وقال آخر: لقد انتزعتْ خاصته في السنة الماضية ثلث قمح أرض أبي؛ فجُعنا.

وقال ثالثٌ: هذا هينٌ؛ لقد انتزع أحد الخاصة زوجتي مني وضمها إلى جواريه في قصرٍ مغلقٍ، ولكنها عادت إليَّ عندما عادت الروح إلى بني كنعان.

تقدم الملك خطواتٍ، فظهر بجسمه الفارع الذي يختفي خلف الحديد وقال: أحقًّا بلغتْ بهم القحة إلى اقتراف ما ذكرتم؟!

انتفضوا مذعورين ، وصاح أحدهم برعبٍ : مولاي الملك العظيم سمحون! إني أريق دمي تكفيراً عما تحدثتُ به.

واستل سيفه ووضعه على بطنه ، وهمَّ بنفسه... ولكن يد الملك القوية أوقفتِ السيف قبل أن يصل، وقال: أنتم تقولون الصدق، فلماذا تكفِّرون عن صراحتكم ؟!

قال ذلك واقتعد حجرًا وأخذ يصطلي.

جلسوا واجمين فقال الملك: أنتم زاد بني كنعان وعُدَّتُهَا؛ فليكن حديث كلٍّ منكم كما يرغب ، إن رأيتم سوءات سمحون ضعوا أصابعكم في عينيه ، وإن رأيتم محاسنه غضوا الطرف عنها.

وظل الملك يمازحهم فترةً ثم انصرف.

نظر إلى السماء فرأى الشمس تمد أول خيطٍ إلى الجبل المقابل، ركع على الأرض وابتهل لسارح إله الزراعة والري أن يجعل موسم هذا العام خصبًا، وأن يعيد شكيم إلى أرض كنعان محمَّلاً بالنحاس؛ لكي يقهر أعداءه ، وأن ترعى الأغنام في السهول دون أن تطاردها الذئاب.

ثم نهض وسار بطيئًا، وتوقف فجأةً عندما جاءه صوتٌ يقول:
- إلى أين أيها الملك ؟ أنت تسير في الطرقات مزهوًّا بعُدَّتِكَ الحربية بينما يأكل العبريون من لحوم أولادنا في أريحا. ألم تسمع بالنهر الذي اصطبغ لونه بالدم يوم هدموا أسوارها وذبحوا أطفالها قُرباناً للعجل الذي استبدلوه بالإله الواحد؟

تسمر سمحون في مكانه، حدَّق في الرجل الذي يجلس على حجرٍ قرب سور بيتٍ متهدمٍ... كانت لحيته طويلةً بيضاء مثل سهول القمح الناضجة ، يقبع رأسه الأشيبُ على جسدٍ عارٍ برزتْ فيه عظام الصدر كشبكة صيد النمور، يحمل في يُمناه عصًا شذَّبها من زيتونةٍ فظهرتْ معوجةً في أكثر من موضعٍ، لكن بسمته مشرقةٌ كوجه طفلٍ حصل على الطعام بعد جوعٍ طويلٍ.

حدَّق سمحون في عينيه فرآه ينظر إلى ناحية أخرى فعلم أنه أعمى لا يرى، قال الملك:

- من أنت أيها الصالح؟ وكيف عرفتنى؟

- وهل تخفى خطوات الملك ؟ ، عندما يسير سمحون في عدته الحربية فوق طرقات أورسالم تعلن الحجارة عن مقدمه.

- من أنت أيها الصالح؟

- أنا شاحور بن سرجون، أقبع دومًا خلف سارح إله الزراعة والري فيوحي إليَّ بكلمات.

- لكني ترددت كثيرا إلى معبد سارح ولم أرك هناك.

ضحك العجوز فظهرت أسنانه المهترئة :

- أنا أراك ولكنك لا تراني

قال الملك متعجبًا:

- وكيف ذلك؟

- أنا الذي يدور كل يوم على سهول القمح ويباركها فتعطي ثمرًا كثيراً، وأنا الذي يحتضن أطفال أورسالم فيعلمونه الحكمة والبراءة... لست كاهنًا خاملاً كما ترى ، الخاملون هم الذين ينتظرون الحسنة التي تأتي لسارح من فقراء أورسالم.

اقترب منه الملك وقال له:

- افصح أيها الصالح عن ما في نفسك.

- ما سأقوله لك خطير إلى درجة الموت ، إن نفَّذته وقفتْ أورسالم معك إلى النهاية، وإلا فلن تستطيع أن تواصل إلا بمفردك، عدوك قوي أيها الملك، غادرٌ ويبطش بكل ما يصادفه، فإن لم تكن أقوى منه قهرك.

قال سمحون باهتمام:

- قل أيها الصالح ما العمل؟

- العمل في أن تهدم معبد سارح.

فزغ الملك وتراجع خطوات إلى الوراء:

- معبد سارح؟ هل تقودني أيها الصالح إلى خراب المملكة؟

ابتسم العجوز وقال:

- ألم أقل لك إن كلامى خطيرٌ إلى درجة الموت، أنت وشأنك، إن أردت فافعلها، وإلا فأنت حُرٌّ كما أعطيتَ الحرية لشعبك.

قال الملك بيأس:

- ولكن لماذا؟
- أترى أهل أورسالم وهم يؤمون معبد سارح، إنهم يحملون إلى الكهنة أفضل ما في بيوتهم، يبيتون على الطوى كي يشبع سارح، يطلبون منه العون وهو لا يستطيع لهم شيئًا، وإن أصابتهم مصيبة استنجدوا به، إذا انحبس المطر تدافعوا إلى معبده، إن هجم الأعداء على المدينة سوف يحتمون بالمعبد طالبين إليه الحماية والعون.

قال الملك بحماس:
- لكنك كاهنه الذي يوحي إليه بالكلمات.
- سارح يعطيني كلماته في سهول القمح وليس ضمن الجدران.
- وماذا يقول الكنعانيون عني؟
- هم يحبونك الآن أكثر من حبهم لأولادهم، فتدبر أمرك أيها الملك.

سرَّح العجوز وجهه شطر الفضاء وتابع هامسًا:
- عندها فقط لن يبقى للكهنة أي سبيل لإذلال الفقراء، سيختزن الفلاح قمحه في بيته لا في بيوت الكهنة، ويطلب العون من نفسه لا من المعبد.

ترددت خطوات الملك وهو يهمُّ بالمغادرة ثم توقف وقال:
- قل لي أيها الصالح، ماذا تقول عن الحرب بينى وبين العبريين؟
- العِلم في كبد الغيب يا ولدي، لا تثق بالمنجمين فهم مثل الكهنة كاذبون، لا تثق إلا بسيفك فهو الذي يُنبئك بالقول الفصل.

عندما عاد الملك حطَّت على وجهه حِزمةٌ من شمس أورسالم، وملأت الأزقة، وزَّع بركاته وابتسامته للجميع على حدٍّ سواء، وعندما وصل إلى حصانه اعتلاه وعاد إلى قصره.

• • • •

أفاقت حورا من نومها مذعورة، فقد داهمتها الأحلام وبكت طوال الليل، رأت شكيم يذرع الصحراء وحيدًا تنتظره الذئاب بين كثبان الرمال، وفي كل مرة كان يمتشق سيفه ويهاجمها فتهرب أمامه، لكنها كانت تتجمع زرافات ثم تعود للهجوم عليه فيتلقاها بسيفه، فتهرب ثانيةً أمامه، لتعود وتجمع نفسها من جديد.

عندما أفاقت حورا من نومها كان وجه شكيم أخر ما لمحته مضمخًا بالدم في أكثر من موضع، رداؤه يلتصق بجسده مبتلاً بالدماء، وعيناه ضارعتان إلى وجهها تطلبان العون منها.

هرعت إلى مشجب في مقصورتها ووقفت مذهولة، كانت بُقع من الدماء تغطي رداء شكيم المعلق، تمامًا كما رأته في الحلم، ممزقًا مهترئًا كمن فيه جثته... صرخت في رعب، وردَّد القصر صدى صرخاتها، فهرعت إليها الملكة تضمها بحنانٍ إلى صدرها وتحاول تهدئتها...
- حورا... ما بكِ أيتها الحبيبة؟

ربتت على خدها مراتٍ ومرات، كانت تصرخ وعيناها مفتوحتان على سعتهما تحدِّقان في المشجب، ثم دفنت وجهها في صدر الملكة فسرى الخدر والسخونة إلى وجهها النظيف المبلَّل بالدموع، وأحسَّت يدًا تخلل شعرها، فنظرت ثانية إلى المشجب، كان رداء شكيم نظيفًا مثل أشعة الشمس.

- ما بكِ يا حورا؟... أجيبى أيتها الحبيبة.

ركعت حورا على ركبتيها وابتهلت:
- أعده إليَّ يا سارح ممجدًا كنخيل أريحا، عظيمًا مثل قنوات الري في بلاد كنعان.

هرع سمحون إلى مخدع ابنته، كان عائدًا لتوه من رحلته في أزِّقة المدينة، حدَّق في وجه الملكة فغضت طرفها، ثم تقدَّم إلى ابنته:
- سارح لا يستطيع أن يعيده إليكِ إذا ما أصابه ضرٌّ أو لحقت به منفعة.
نهضت حورا فزغة.

خلع سمحون عُدته الحربية وهرع إلى باحة القصر يحمل معولاً وهو يصيح:
- أيها الناس، يا سكان أورسالم، من يحب سمحون الملك فليأتِ إلى قصره الساعة، وفي يمينه معوله.

وترددت جنبات المدينة بالصراخ... هرع البعض لإخبار من يعملون في المزارع بالأمر، و قبل أن ينتصف النهار وقفت أورسالم لتستمع إلى الملك:

(يا سكان أورسالم، من أحبني ووقف إلى جانبي فليذهب إلى معبد سارح، وليعمل معوله في هدم حجارته وتهديم آثاره، سارح يأمرني أن أهدم معبده هنا لأُقيمه في أريحا، ولن يرضى عنا إلا إذا بنينا معبده هناك، عندما نطرد العبريين من بلادنا).

سرت في الناس ضجة كبيرة، وفي مقدمة الجمع وقف أحدهم وصاح بالناس: ألم تسمعوا ما أمر به الملك وإرادة سارح؟ فليُهدم هذا المعبد...

تدافعت الجموع تخترق الأزقة والشوارع النظيفة حتى وصلت إلى المعبد، وهناك لاذ الكهنة بالأسوار ينظرون عن بُعد، وارتفع الغبار إلى السماء، ولم تنم أورسالم ليلتها إلا والمعبد أنقاضًا لا أثر له ولأعمدته.

• • • •

نامت أورسالم لأول مرة في تاريخها دون أن تحمل قمحها إلى معبد سارح إله الزراعة والري...

قال الناس في مجالسهم: نعمَّ ما فعله الملك... وآخرون قالوا: نخشى أن يحبس سارح المطر عنا فيجفُّ الزرع وتموت الحياة.لكن تنفس الصبح جاء إليهم بالخبر اليقين، لم تشهد أورسالم من قبل مطرًا غسل كل حجارة المدينة وأزقتها كالمطر الذي هطل ذاك اليوم، الزروع التي كانت بحاجة للطل رُويتْ وشبعتْ، الآبار التي جفَّتْ منذ زمن امتلأت حتى حوافها، الشجر الذي كاد يذوي عادت إليه نضرته.

وعندما انتصف النهار بزغت الشمس من وراء السحب ضاحكةً لأهالي أورسالم الفقراء، وشهدت ساحة المدينة حفلاً رائعًا لم يحلم به الفقراء منذ زمن... اصطفوا على جوانب الحلقة صفًا واحدًا، وبدأوا يرقصون، جاءت النسوة يحملنَّ جِرار الزيت ودلقنها في وسط الحلقة فتحول الرقص إلى مشهد ممتع، الراقصون ينزلقون فيقعون على الحجارة الملساء فترتفع الضحكات عالية حتى عنان السماء، ثم ضاقت الحلقة قليلاً بفعل قدوم جموع أخرى واصطفافها على جوانب

الحلقة ، جاءت النسوة يحملنَّ جرار اللبن ودلقنها في وسط الساحة ، فعلت الضحكات حتى وصلت إلى قصر سمحون الملك، كان الراقصون ينزلقون فيقعون على وجوههم وجُنوبهم فيُجبرون على تذوق اللبن الذي حوَّل ملابسهم إلى لوحات جميلة... ثم ضاقت الحلقة، وضاقت حتى لم يعد سوى مساحة صغيرة للرقص ، وجاءت النسوة يحملنَّ جرار العسل وطفنَّ بها على الناس يتذوقونه بلذة ومتعة...

وفي خضم الاحتفال صاح بالناس مَنْ أعلن قدوم الملك... شقَّ سمحون طريقه إلى الساحة الصغيرة ، في البدء قدمت النساء إليه العسل فرفض أن يتذوقه قبل أن يتذوق الزيت واللبن ، ورقص الملك ، وقع أكثر من مرة فتذوق اللبن والزيت ، وشاركه أهالي أورسالم رقصه وتذوقوا معه ، ثم امتدت يده إلى جرة العسل فادخل أصابعه في متنها وسال العسل على لحيته وهو يمتص أصابعه بلذة عجيبة...

قال سمحون الملك في غمرة نشوته:

- من أحبَّ سمحون فليذهب إلى قصره ليحضر الأميرة والملكة دعونا نرى رقصهما.

فتدافع بعض الناس إلى خارج الحلقة مولين وجوههم شطر القصر ، وبعد لأى جاءت حورا والملكة على حصانين عربيين يقطران رقةً ودلالاً.

قال سمحون الملك:

- حورا، قد تعودنا قبل أن ترجع الروح إلى بني كنعان أن يرينا الشعب رقصاته، لكننا اليوم سنرقص للشعب.

قفزت عن حصانها مثل حمامة اغتسلت في بركة ماء نظيفة، ثم تبعتها الملكة، وما إن دارت قليلاً حتى انزلقت قدمها فأُجبرت على تذوق اللبن والزيت... وظلَّ الرقص والصخب عاليًا حتى أذنت الشمس بالمغيب، وعندها فقط مدت حورا يدها إلى جرة العسل وتذوقته، ثم تذكرت أن شكيم يسير الآن وحيدًا في الصحراء فامتنعت عن تناول المزيد.

صاح الملك ضاحكا:

- لماذا توقفتِ يا حورا ؟... الكنعانيون يشربون العسل عندما يجيء المطر ، فلتتذوقيه معهم ولترقصي.

وتذوقت حورا العسل ثانية ، ورقصت ، ورقصت ، وعندما أقبل الليل اعتلت والملكة حصانيهما وسارتا.

أما الملك فقد سار عبر الأزقة وحيدًا بعد انتهاء الحفل، وما كاد يصل إلى نهاية الزقاق حتى استوقفه صوت يعرفه جيدًا:

- أيها الملك العظيم سمحون، ها أنت تبني مجدك من جديد، ها أنت عرفت الطريق لطرد العبريين من أريحا وإعادتها ثانيةً إلى بني كنعان، فليكن اسمك ممجدًا على مدار الزمان، وليكن الحب زادك إلى الأبد.

- شاحور ابن سرجون، أيها الصالح الذي يدلني على طريق الخير، هلا صاحبتني إلى قصري فتنال مني حُسن الجزاء؟.. لقد جلبت إلينا المطر.

ضحك شاحور عن أسنان مهترئة وقال:

- أيها الملك العظيم سمحون، إن صاحبتَ شاحور إلى قصرك فسد وأفسد، ليس مثل لين العيش يجلب المصائب.

قال الملك:

- انصحني أيها الحكيم الطيب

وجَّه شاحور وجهه شطر السماء وقال:

- إياك ولين العيش، فإنه مدعاة للاستكانة.

- زدني...

- إياك واقتناء الذهب في الخزائن دون الاستفادة منه.

- لقد أرسلته إلى مصر مع شكيم ليستبدله بالنحاس.

- سأوصيك الأخيرة أيها الملك.

- هاتها...

- إياك والتفريط في رمل بني كنعان، إنَّ حبةً منه تساوي كل ذهب الأرض.

قال ذلك وحمل عصاه يتحسس وجه الطريق واختفى في الأزقة، لحقه سمحون يناديه، ولكنه كان قد ذاب في العتمة.

• • • •

مضت ليالٍ وليال، وسمحون الذي يسوس بني كنعان ويحميهم يطالع في النجم صورته ولا تغفل عينه عن الترقب لحظة.

جاء موسم الحصاد وشكيم لم يعد، المنازل الطينية امتلأت بالسيوف والحراب، ساحة المدينة الرئيسة تحولت إلى ميدان للتدريب على استعمال أدوات الحرب، وكانت الأنباء ترد من أريحا تباعًا، لقد حوَّلها العبريون إلى مدينة خربه، بنوا من الجماجم قصرًا لسيدهم يوشع بن نون، وأقاموا فيه بِركة من الدماء كي تسبح فيها زوجته الجميلة، الذين نجوا من المذبحة شدوا على ظهورهم البراذع واستخدموهم لنقل الماء والحطب، اقاموا للعجل معبدًا ضخمًا وسوَّروه وكتبوا على مدخله تاريخ المذبحة... كل شيء في المدينة تحول إلى خراب.

كان سمحون يسمع الأخبار فيجلس في فناء القصر ليلاً ويستطلع وجه النجوم، وفي ذات ليلةٍ أرهقه الأرق فاتجه نحو ساحة أورسالم، وأثناء سيره في أحد الأزقة سمع همسًا، فألصق أذنه بالجدار...

قالت امرأة: لماذا نخزِّن الحراب والسيوف؟ قد قرب الصدأ أن يأتي إليها.

قال رجل: سوف تأتى المعركة...

قال طفلٌ صغير: أبتاه، وهل تأتينا المعركة؟ الحكمة في أن نذهب إليها.

قال الأب: كيف يا ولدي؟

قال الطفل: الحكمة أن نقاتل العبريين لا أن يقاتلونا، لقد جاءونا غازين فهل ننتظرهم حتى يأتون إلينا؟ لماذا لا تقول هذا للملك؟

ارتعد جسد سمحون كله وصرخ:

- أنا هنا يا طفلى الحبيب.

وقرع سمحون الباب ففتح له على مصراعيه...

قال الطفل:

- سامحنى أيها الملك العظيم، إنما هو رأيٌ أبديته.

ضحك سمحون وضمَّ الطفل إلى صدره وقال:

- الآن فقط يصبح سمحون تلميذًا لأطفال أورسالم الفقراء.

وما إن قُدِّم العسل في صحن للملك حتى لحس منه مقدارًا ضئيلاً واتجه إلى قصره مسرعًا، وما كاد يخطو حتى جاءه الصوت آمرًا:

- توقف أيها الملك.

وقف سمحون حائرًا، لكنه تذكر الصوت فانفرجت أساريره...
- أنت أيها الحكيم العاقل، لماذا تركتني كل هذا الوقت؟
قال شاحور بن سرجون :
- بل أنت الذي تركتني أيها الملك...
- أنا تركتك؟!! إنني أسهر الليل وأتحدث إلى النجوم بانتظار صوتك.
- ألم أقل لك إني لا أرتاد القصور؟... هل يلزمك كل هذا الوقت للتعلم من أطفال أورسالم ما يجب أن تفعله؟؟
- ولكني بانتظار شكيم، لقد طالت غيبته.
قال الحكيم باسمًا:
- أيها الملك العظيم، رفقًا بنفسك، ماذا أنت فاعل إذا مات شكيم قبل أن يصل إليك؟
فزع الملك وقال:
- إن مات ففي بني كنعان ما يكفيني.
ضحك الحكيم وقال:
- حاور نفسك أيها الملك، وعندما تتأكد من قناعتك؛ حارب، عندها سوف تكسب الحرب.

اختفى شاحور في الظلمة، واختفى الملك في الأزقة عائدًا إلى قصره، ونامت أورسالم ليلتها هادئة مطمئنة... فقد ذهب سمحون للنوم مطمئنًا.

• • • •

شكيــــــــم

مدَّت حورا يدها إلى شعر صدره الكث فسرت الرعدة في جسده، ثم تنقلتْ راحتها إلى لحيته فتخلَّلتها بأصابعها وابتسمتْ.

كان الليل يضحك، والحُرَّاس يضحكون، حتى حجارة القصر كانت تبتسم...

سارا في الليل وأوغلا في العتمة، استمعا إلى أهازيج صُنَّاع السيوف على أضواء شحوم البقر، وعندما تعبا اعتليا ظهر تلَّةٍ مشرفةٍ على المدينة، وجلسا هناك ينظران إلى الأضواء الخافتة التي تنبعث من الشبابيك الصغيرة.

قالت حورا: الليل جميلٌ، والنبات يفرش بساطه خجلاً على وجه أورسالم الندي.

قال شكيم: الليل جميلٌ؛ فافرشي لي جسدكِ بدل النبات؛ كي أشق طريقي فيه دون عناءٍ.

قالت حورا: جسدي قمحُكَ الذي تزرعه على أرض حبرون.

قال شكيم وهو ينظر إلى وجه القمر: ابتعد يا هذا ولا تنظر إلينا هلا أجَّلت طلوعكَ إلى صباح الغد!

وجاءت غيمةٌ رقيقةٌ بيضاء فغطت وجه القمر.

قال شكيم: غدًا أرحل إلى مصر، فلتكن الليلة نهرًا يسقيني ويكفيني رمضاء الصحراء حتى أصل.

قالت حورا: أتذكرني يا شكيم ؟! أم تغريك قلائد الذهب المعلقة على صدور الصبايا في طيبة؟

قال شكيم: أتذكرينني يا حورا ؟! أم يغريكِ الفرسان الذين يجولون حول القصر في ليالي الصيف؟!

ضمَّها إلى صدره فارتعشت، ثم نام رأسها على كتفه، فملك أرض بني كنعان، وملكتْ جواهر وكنوز الارض.

قال شكيم: نذرع أزِّقة أورسالم ثانية حتى يتنفس صُبح المدينة.

حملها فوق رموشه ومضى، أوغلا ثانيةً في الأزقة، حملت البيوت الطينية إلى مسمعيهما همسات أهالي أورسالم الطرية... وفجأة وجدا نفسيهما أمام بيت طيني خرِب، تهدَّم جزءٌ من سقفه ووقف الجزء الآخر صامدًا أمام الزمن... دفع شكيم باب البيت الصدئ فأنَّ كمن يتألم.

- أين نحن يا شكيم؟

- أنتِ في صدري يا حورا، بيتٌ من الطين والتبن يأويني وأبي وأمي.

قالت حورا مازحة:

- الآن فقط أمتزج مع تراب أورسالم النقي، وأرى فيه نفسي.

في البيت الطيني، على ضوء سراج الشحم؛ كانت تفترش الأرض وتلفُّ الصوف حول مغزلها، بدأبٍ ونشاط، بينما حدَّق كهلٌ في خشب السقف الأسود وبدا عليه الشرود. ومن خلال نظرة كليلة نحوهما جاهدت كي تقف على رجليها...

- شكيم، أيها الولد الطيب، لِمَ لَمْ تخبرني؟

جثت على ركبتها، بينما وقف الرجل الهرم على قدميه مذهولاً.

- عفوكِ أيتها الأميرة، إنه بيتٌ لا يليق.

تلقتها حورا بكفيها:

- أنتِ سيدتي وأُمي، أنتِ تراب أورسالم النقي الذي يعبق بالطهر والنقاء

قال الكهل وابتسامته تشع حرارةً وضوءًا:

- سيدتي ابنة سمحون العظيم، إنها ليلة تلد فيها النساء أطفالاً بعدد القمح الذي ينبت في حقول حبرون وأورسالم.

اتجهت إليه حورا باسمة، فحاول أن يركع على قدميه، فانترعته قبل أن يصل الأرض:

- أنت سيدي وأبي، أنت المعول الذي يشق تراب الأرض ويطعمنا القمح ويعطينا الحياة.

قال شكيم باسمًا:

- وا فرحتاه، أصبح أبي "سارح" الذي يعطينا القمح والنماء.

ضحكوا جميعًا، ثم اقتعدوا الأرض وقامت أُمه فصبَّت اللبن في صحن فخاري قدمته للأميرة، شربت ثم دار الصحن عليهم جميعًا فشربوا.

قال شكيم: غدًا أرحل إلى مصر محفوظًا برعاية سمحون العظيم حامي أرض بني كنعان وسيدها.
قالت الأم: إن رأى سيدي سمحون ذلك، فليكن...
وقالت حورا: قلبي يرحل مع خطواته عبر الصحراء.
وقال شكيم: في عيون أريحا أموت وأحيا ألف مرة.

قامت الأم فأحضرت صحنا من العسل، دارت عليهم فتذوقوه بلذة.

قالت الأم: أخشى أن لا يعجب العسل الأميرة، إنه من عسل حبرون النقي.
قالت حورا: إذا مرَّ شكيم بيده فوق الماء تحول إلى عسلٍ نقي.
ضحك شكيم ملء فيه وقال: سيدتي ابنه سمحون العظيم فليكن دمي ضمانًا لمالكتي حورا...
ثم همس مضيفًا: حبيبتي حورا

نظر الكهلان إلى العيون بلهفة واستغراب

قال شكيم: لا تفزعي يا أماه، عندما أعود من مصر سأتزوج حورا وأصبح ولدًا طيبًا.

فغرت الأم فاها: أيها الشقي، أيها الحبيب الذي يمنُّ عليَّ دومًا بالسعادة والبسمة، أيكون هذا صحيحًا؟!
قالت حورا: ستكونين سيدتي وأُمي.
قال الأب: ويحك يا شكيم، أتفعل كل شيء دون أن ندري؟ كان الأجدر أن نفرح قبل الآن.
قال شكيم ضاحكًا: على بركة أرض بني كنعان نزرع القمح، وننجب الأطفال، ونمجِّد سمحون العظيم.
ثم غادرا فرحين

ضمها إلى صدره، فقالت النجوم: آه، وانتثرت على وجه ليل المدينة حبات العرق المتصفد من جبين الفقراء.
- أتحبنى يا شكيم؟
- أحبكِ مثلما أُحب المطر الذي يهمس لحجارة أورسالم بعد صيفٍ طويل.

غسلهما ليل المدينة فتاها بين الأزقة... ساعدا رجلاً انزلقت رِجل حماره على الأرض المرصوفة بالحجارة الملساء، شربا الماء من بئر ساحة المدينة، استمعا إلى مناجاة العُشَّاق قُرب الأسوار الخرِبة.

قالت فتاة: لكنه يأبى إلا أن تصنع له عشرة سيوف صقيلة.

قال الفتى: لو طلب مني أن أمضي بقية عمري أصنع له السيوف مهرًا لكِ؛ ما قصرت.

قالت الفتاة: لو لم تكن الحرب قادمة لدفعت له عشر صاعات من القمح وباركنا، آه من الحرب.

قال الفتى: الم تستمعي إلى سمحون الملك وهو يقول: بالسيف وحده يحيا الإنسان؟

ثم انقطع الحديث فجأة وقالت الفتاة: آه.

نظر إلى عينى حورا في العتمة، فألفى الدمع يسرح فيها دون أن يسقط.

- وأنت ماذا دفعت مهرًا لحورا؟!

- أدفعه شوقًا مع كل خطوة إلى أرض مصر، وأدفعه جِمالاً محملة بالنحاس كي يصبح سيوفًا تجرح من ينظر إليها.

ابتسما...

قال شكيم:

- منذ الليلة يصبح مهر الصبايا سيوفًا لامعة صقيلة.

لحس دمعة سقطت على خدها، وغابا في العتمة.

ما كاد يخطو عائدًا إلى بيته عبر الأزقة حتى أتاه الصوت آمرًا، فتوقف... قال شكيم:

- من؟! شاحور بن سرجون؟! أما آن لك أن تستريح أيها الطيب الصالح؟!

قال شاحور وهو يطرق بعصاه أرض الزقاق ويتجه نحو شكيم:

- شكيم...

- أيها الصالح، من أوحى لي بأن أطرق باب القصر؟!

- ولكني لم أوحِ إليك بأن تتجه إلى حورا، بل إلى سمحون الملك.

- أيها الصالح الطيب، ليس لنا على القلوب من سلطان.

- أخشى يا بُني أن يقودك العشق إلى نسيان بني كنعان.
- بل يقودنى العشق إلى أن أرى فيهم جميعًا نفسي.
ابتسم شاحور:
- حسنٌ يا شكيم، حورا فتاة بني كنعان، ولكن إياك ولين العيش فهو يقودك إلى الاستكانة.
قال شكيم وهو يحدِّق في وجهه:
- فلتطمئن بالا أيها الصالح، بعد لأي تشق قافلتي صحراء فلسطين إلى صحراء مصر.
فتح شاحور فمه وتصنع الدهشة:
- أحقا أيها الولد الطيب؟؟
- وتعود جِمال سمحون الملك محملة بالنحاس الذي يطرق سيوفًا لامعة صقيلة.
قال شاحور والألم على وجهه:
- لا تذهب يا شكيم... لا تذهب يا ولدي.
- ولِمَ هذا أيها الصالح الطيب؟
- سوف لن تحصل على النحاس، فهم يستخدمونه أيضًا لصنع سيوفهم.
- لكني وعدت الملك، ولن أتراجع.
- كما ترغب يا ولدي... إن حصلتَ عليه فذلك غاية ما أتمنى، وإن لم يكن؛ فعُد مسرعًا.
قال شكيم باسمًا:
- عظني أيها الصالح.
- فتات خبز بني كنعان خير من موائد فرعون.
- أعلم هذا أيها الطيب، سوف أعود فور حصولي على النحاس.
- رمل أورسالم الذي تدوسه حورا مقدَّس، مثل خبز الفقراء.
- وحورا أيضًا مقدَّسة مثل رمل بني كنعان.
- سأقول لك الأخيرة، سمحون يقول: بالسيف وحده يحيا الإنسان، وأنا أقول لك : إنما بالسيف والعقل معًا.

غاص شاحور في بطن الليل، ووقف شكيم في العتمة مفكِّرًا، حتى لسعته النسمة ، فانسرب إلى بيته كي يودِّع أبويه.

• • • •

جلست حورا ترقب الغيب في شرفتها، وأطلَّ من بين الزيتون وجه شكيم الممرَّغ بالدفء والحياة ، فسرت في جسدها رعدة خفيفة كطيف مرمر السحاب ، ونهضت إلى مقصورتها.

وشكيم لا يأتي من الأبواب رغم فتحها على مصارعيها ، قفز إليها ، فاحتضنته بقوة...

- أواه يا شكيم، ما كنتُ أحلم أن تغادرني بهذه السرعة.
- لكِ نفسي يا حورا، سأعود إليكِ مثل العاصفة محملاً بما يعترض طريقي.

كان الظلُّ قد نشر حُبيباته على أوراق الشجر القريب من النافذة الواسعة ، وشقَّت الشمس طريقها عبر الأوراق لترسم في المقصورة ظلالاً جميلة... القصر كبير ، والنوم يأخذ السابحين فيه إلى عوالم سحرية جميلة... وحورا تفرد ذراعها البضِّة مخدة يتكئ عليها رأس شكيم ولحيته الكثة.

- ما أن ترتفع الشمس قامةً أخرى حتى تغادرني، أواه يا شكيم.
- خفِّفي عنكِ يا حبيبتي، شكيم الذي تجرأ ونظر إلى عيني حورا ابنة سمحون العظيم سوف يعود وفي يمينه سيفٌ من النحاس.

نظر إلى عينيها فألفاهما مثل فناجين العسل الذي يُقدَّم في أعراس أورسالم، قبَّلها وتدرج فمه إلى وجهها النظيف وعُنقها البض، واختفى كل شيء من ناظريه، دار العالم دورات كثيرة وسريعة ثم اتكأ رأسه ثانيةً على مرفقها.
- آهٍ لو أني أعيش العمر كله أنظر إلى عينيكِ ما مللتُ.

سرت في القصر ضجة مفاجئة، هرع إلى الشرفة فرأى الحُرَّاس يحملون قافلة الجمال بالذهب ، لحقته حورا كئيبة حزينة ، ومدَّتْ نظرها إلى الأُفق الذي غسلته الشمس فغدا مثل الضباب الصيفي.

- حورا، هي لحظة لن أنساها، أغادرها وقلبي يسرح ممتشقًا حُسامه، ولكنه يُلقي بسلاحه عند قدميكِ ليعلن أنه مِلكٌ لكِ مهما قسا الزمان.
- شكيم، تذهب راشدًا وتعود ممجدًا، قلبي يقفز من صدري، ولن يعود إليه إلا عندما تعود.

قبَّلها ثم مسح دموعها بكفه وخطا إلى باحة القصر، كانت القافلة قد جهزت بانتظار إشارة من سمحون كي ترحل...

لم يطل الانتظار، أطلَّ سمحون من الشرفة، أجال بنظره عبر القافلة فرأى الجنود في عددهم الحربية يمتطون صهوات خيولهم يستعدون للتحرك لحماية القافلة أثناء سيرها في مجاهل الصحراء... نظر ناحية أخرى فرأى حورا وقد وقفت جامدة كأنما هي قطعة من صخر، صاح الملك بأعلى صوته:
- على بركة أرض بني كنعان تغادر القافلة إلى مصر.

ردَّ شكيم بأعلى صوته:
- باسم سمحون العظيم، حامي أرض بني كنعان وسيدها، تغادر القافلة الأرض التي تدرُّ اللبن والعسل.

وحانت منه التفاته إليها، ثم همز حصانه فطار إلى مقدمة القافلة، رفع لها يده بالتحية وتحرك الركب.

• • • •

ومضت ليالٍ أخرى، وشكيم الذي يشقُّ طريقه في الرمال يغادر أرض بني كنعان وقلبه منسدل على رمالها يحلم أن يعود محملاً بالنحاس كي تعود أريحا إلى بني كنعان أسوارًا وحياة.

في طريقه إلى الصحراء، وعندما أطلَّت حبرون عليه بمبانيها الجميلة؛ هوى قلبه إلى مرتع طفولته بقوة، لكنه واصل السير متجهًا إلى الصحراء.

وما أن جاء المساء حتى كانت رمال صحراء مصر تلمع في عينيه، وهناك نُصبتْ الخيام وترَّجل الفرسان عن خيولهم للراحة بانتظار يوم آخر.

مضى شكيم إلى خيمته حزينًا بعد أن تفقَّد القافلة، وانسابت في نفسه ذكرى اليوم كخرير جدول تقف على ضفتيه أحلامه الزاهية.

وما عتم أن جاء قائد فرسان القافلة ليوقظه من شروده العذب:
- سيدي شكيم، رحلة الصحراء مجهولة وشاقة، فهل لنا أن نرسل استطلاعًا إلى مجاهلها ويعودون إلينا لنأمن غائلة الطريق؟
- كما ترى أيها القائد، إنها أمور لا أفقهها.
- حسنٌ، سأرسل استطلاعًا في النهار ونواصل السير في الليل.

ساد الصمت لحظات، ثم قال شكيم:
- غدًا ندخل أرض الفراعنة، فليكن زادنا خُلق بني كنعان وقوتهم.
- باليُمن نحمي القافلة ونصل إلى مبتغانا بأمان.

تسامرا، وعندما انصرم جزءٌ من الليل ذهب القائد إلى خيمته، واضطجع شكيم على رمل الصحراء... كان الليل في عينيه كتلة من الترقب والقلق، وكانت الذكرى في خياله ينبوعًا من التصميم على أن يبزغ الفجر قبل موعده ليرتحل.
- آه أيها الليل ، تنام وجديلتها فوق صدرها مثل سنبلة مكتنزة.

حملت إليه رياح الصحراء هبوبًا تربًا، فأغمض عينيه، ليلة أخرى لا يزوره النوم، ولكن شتان ما بينهما، كانت حوراً في ليلته الأولى طيفًا ينقله إلى أزقة أورسالم الحبيبة، وفي الثانية هبوبًا متصلاً لرياح مخيفة سوف يمخر مجاهلها إلى حيث يحقِّق ما يريد... وعلى الجسد المرهق مرَّت نسمات تسربت إليه من شقوق الخيمة فقادته إلى عالم فسيح من الدعة والأمان، اخترق فيه ظل واقعه إلى حيث تمنيه الأحلام بقرب العودة.

أفاق على صوت القائد وهو يحث جنود القافلة على طي الخيام، فقام من فوره إلى حيث الضوء.

كان الصبح جميلاً ينضح بالأمل، وكثبان الرمال الممتدة عبر النظر تقف بخيلاء كِقباب مهندسة تعطي المحتمين بها أمنًا وسلامًا.

مضتْ القافلة ، ومضت معها الأيام ، وثقلت خُطى شكيم فجأة ليجد نفسه فريسة حُمى لا يعهدها ، مخرت الآلام جسده فغدا مثل الشحم ينقص كلما لامسته النار، لكنه رغم كل ذلك واصل رحلته...

وأخيراً، قرَّر قائد القافلة أن يتوقف.

صرخ شكيم بكل ما فيه من وهنٍ وقوة:
- لماذا يتوقف الركب أيها القائد؟ لم يبق لنا إلا أيام ونصل.

اقترب منه القائد مشفقًا:
- شكيم، فلتهدأ نفسًا، لن نواصل السير حتى تعود إليك نضارة وجهك.

- فليمت شكيم ألف مرة، وليجلب النحاس دونه.

- سيدي لن نستطيع التفاهم معهم مثلما تفعل أنت ، لن نسير خطوة واحدة قبل أن تبل من مرضك.

بكى شكيم ليلتها بعنف، تعاون على زيادة آلامه؛ بُعده عن أرض بني كنعان وحورا.

- آه أيتها الأرض التي أمزجها بأحلامي فتثقل بي جراحاتي، إني على بُعدٍ يسيرٍ منكِ ولا أستطيع العودة قبل أن أحقِّق ما أريد ، فليكن ترابك ممجدًا كما هو ممجد سمحون وحورا.

ثقلت عيناه ، فتمدد فوق رمل الصحراء يصحو تارةً ويغفو أخرى ، ثم تكاثف هبوب الرياح خارج الخيمة ، فرغت الإبل وأخفت الخيول رؤوسها بين قوائمها ، وسمع دقات الأوتاد عالية مثل الطبول، ومرَّتْ أمامه طيوفٌ عديدة... رأى حورا تفرد له ذراعيها فامتلك العالم في لحظات، ولمح الملك يحثه على متابعة الرحلة رغم ما به من وهن، وأُمه تشير إليه أن يتقدم.

صرخ بملء فيه:

- أيها القائد يا صاحب الرحلة، إنهم يحثونني على متابعة الطريق، فلنمضِ إلى فرعون سريعًا.

كانت العاصفة قد زمجرت فغدا صوته فحيحًا ولم يسمعه أحد.

ازداد تكاثف الغبار حول المخيم، صرخ ثانيةً:
- يا صاحب الحرس، يا صاحب الرحلة: الطريق أمامنا آمن، فكوا عِقال الإبل وأسرجوا الخيول، فرعون على بعد خطوات منا.

ضاع صراخه في مهب الريح، تمالك نفسه ووقف وقد جحظت عيناه، ثم أطلَّ من باب الخيمة... كان الرجال يجاهدون لتثبيت الخيام والسيطرة على الإبل والخيول حتى لا تتيه في الصحراء الواسعة.

- يا صاحب القافلة، لنواصل مسيرتنا.

لكن صوته لم يتجاوز حنجرته، اندفع عبر الغبار يصرخ ويصرخ:
- سأواصل... أيها القائد الذي يمنعني من إتمام مهمتي، فليمت شكيم، ولتمت معه كل أمانيه، لكنه سيجلب النحاس؛ النحاس فقط، سيواصل شكيم الرحلة ، سيواصل.

بكى، واندفع وجهه داخل الرمل مثل نخلة قصف ساقها فهوت، رفعه القائد على ظهره واتجه به نحو الخيمة، ثم اندفع القائد يحث جنود القافلة على أن يثبتوا الخيام، ويعقلوا الإبل جيدًا.

وازدادت العاصفة الرملية عنفًا فامتلأت حلوق الجند بالرمال، لكنهم ظلوا يواصلون عملهم بنشاطٍ وهمة، وما كاد الصبح أن ينبلج حتى تنفس الجميع اشتياقًا لنسمه طرية هبَّت على وجوههم المتعبة فأعطتهم دفقًا لحياة جديدة، وجاءت الشمس لتمسح عن وجوههم آلام الليل.

أفاق شكيم من نومه فتراءت له الأشياء غائمة مضببة، ثم وضحت رؤيته فطالعه وجه الجندي يبتسم له باستحياء:
- لا تجهد نفسك يا سيدي، لقد مضت ليلتنا دون خسارة.

جاهد أن يتكلم، لكن حلقة الممتلئ بالتراب لم يسمح له.

- لا تقل شيئًا يا سيدي، كانت ليلة رهيبة وقد اجتزناها بسلام.

أغمض عينيه ثانية، تلمست يد الجندي وجهه بنعومة، كانت الحمى قد فارقته وبدأ وجهه يعود إلى التورد.

ومن خلال البسمة التي ارتسمت على ثغرة، رأى قائد القافلة يركع إلى جانبه ويشد على يده مشجِّعًا.

• • • •

ومضت ليلة أخرى، يخب شكيم في الرمل، يشق طريقه غير عابئ بالعواصف وسكون الصحراء، تأتيه حورا على عجل فيبعد طيفها منحازًا إلى رجال القافلة، وتأتيه أريحا طيفًا مسكونًا بالحزن والعذاب، فيحث رجال القافلة على أن يسرعوا، ويقف أمامه سمحون الملك في عدته الحربية، فيبتسم، حتى ليكاد الركب يشك في صحة عقله، ويزحف إليه البيت الطيني الخرب في أزقة أورسالم فيرى أبويه ينقلان القمح إلى سارح، يسألانه أن يعيد شكيم إلى أرض بني كنعان ممجدًا كما رحل.

وفي لحظة سكون، صرخ أحد الجنود بقوة، وتتالت أصوات سحب السيوف من أغمادها، ورسمت عشرات العجلات الحربية التي تجرها الجياد خطوطًا متعرجة حول القافلة، وتسمر الجميع في أماكنهم.

تقدَّم رجلٌ طريُّ العود بعربته نحو القافلة، بينما وقف الباقون، وعندما اقترب؛ لمح شكيم رسوم الفراعنة على مقدمة العربة فاطمأن قلبه... توقف فجأة ثم صرخ:

- من أنتم؟ ولماذا تدخلون أرض الفراعنة دون إذن منهم؟

اقترب شكيم حتى أصبح على بعد أمتار منه وقال:
- نحن رسل الملك سمحون العظيم، ملك فلسطين وحامى شعبها إلى عظيم مصر.

- وهل تحملون رسالة تؤكد قولكم؟

مد شكيم يده إلى صدره وأخرج لفافة مصنوعة من جلد الغزال، هذه هي الرسالة، وهذا خاتم سيدي سمحون عليها.

اقترب الضابط الفتى والتقط الرسالة ، ثم نزل عن عربته وانحنى احترامًا ، وأعادها إلى شكيم وقال:
- على الرحب والسعة، أنتم ضيوف مصر.

ثم لوى عنان فرسه فانطلقت العربة إلى رفاقه، وفي لحظات تجمعت العربات وانطلقت تاركة غبارها يشق الفضاء، عاد الضابط مع أحد مساعديه إلى قافلة بني كنعان ثانية، وما أن وصل حتى نزل عن عربته وتقدم إلى شكيم باسمًا:
- سنرافقكم حتى أبواب طيبة ، وهناك تخيمون حتى يأتي أمر فرعون العظيم إلينا.

ومضت ليلة أخرى ، وشكيم يستطلع وجه النجوم في مخيمه يبحث عن وجه حورا بشوقٍ وشغف، كلما دنا منه فارس لاح الفرح على جبينه علَّه يحمل إليه أنباء دخولٍ طيبة ورؤية فرعون.

طال الانتظار، وما أن دنا منه الضابط مرة حتى ابتدره بالقول:
- قد طال الانتظار يا أخي، والعدو على أبوابنا، فإن رأى فرعون أن نراه الساعة فالسعد لنا، وإلا سنعود أدراجنا.

قال الضابط مبتسمًا:
- أراك كرهت الصبر واستعجلت الأمر، إنما هي أيام من عمر الزمان وتحظى بالمثول أمام الإله الطيب ابن الشمس.

- ولكني سفير سمحون العظيم إليه، وقد أوصاني بأن أقضي مهمتي وأعود على الفور.

- إننا نحتفل بعيد النيل الذي يعطينا الخير والنماء...

ولم يكمل عبارته، ارتفع غبار عربة قادمة يجرها جوادان مطهمان وعلى ظهرها فارس ارتدى عدته الحربية النحاسية اللامعة، وصرخ بأعلى صوته قبل أن تستقر العربة على أرض المخيم:
- سيدي ابن الشمس يطلب سفراء ملك فلسطين للمثول بين يديه.

أصابت شكيم فرحة طاغية، ترك محدثه وأسرع نحو حُرَّاسه يستحثهم الإسراع في تجهيز أنفسهم.

ولم يمضِ بعض الوقت حتى كان شكيم يشق طريقه في شوارع طيبة وأزقتها متجهًا نحو قصر فرعون.

أخذته الدهشة وهو يرى ضخامة الأبنية وفخامتها في جانب من المدينة، بينما في الجانب الآخر تقع بيوت تعاف العين رؤيتها، وفي خضم أفكاره ضحك الضابط الفتى وقال:

- لا تعجب، هذه بيوت الأشراف وتلك بيوت العبيد.

هزَّ شكيم رأسه وابتسم.

توقفت القافلة في باحة واسعة يحوطها حُرَّاسٌ سُمر الوجوه تبدو على وجوههم سيماء القسوة. نزل شكيم عن حصانه وتبعه قائد الحرس واتجها نحو درجات تصعد إلى باب القصر، بينما بقي الجنود لحراسة القافلة، ودقت صناجات نحاسية دقات رتيبة، ثم فُتِح باب على مصراعيه فرأى شكيم فرعون مصر يفرد جسده على عرشٍ ذهبي لامع، بينما ركع كل من في القافلة إجلالاً له. وعندما تقدم إليه ارتفعت كل الرؤوس واتجهت العيون إليه... تفرَّس شكيم في وجهه فإذا هو غضٌّ طريٌّ العود أسمر الوجه تبدو الوداعة في كل حركة من حركاته.

قال شكيم:

- سيدي فرعون مصر وابن الشمس وجارنا الطيب، قد أرسلني سمحون العظيم إليك في قافلة محملة بنفيس الذهب لكي نستبدله بالنحاس.

أدرك شكيم من تقلب الوجوه أنه يطلب شيئًا عزيزًا يصعب تلبيته، فتابع حديثه :

- هذه رسالة من سيدي سمحون يشرح فيها ما أعجز عن ذكره.

تناول أحد القواد رسالة سمحون من يد شكيم وسلمها إليه، فتحها فرعون فبدت على وجهه أمارات الحزن وقال:

- ما اسمك أيها الرسول الطيب؟

قال شكيم باسمًا:

- خادمك شكيم من أرض حبرون.

- حسن يا شكيم، أقم في ضيافتنا، وفي الغد يأتيك الجواب.

رجع شكيم إلى الخلف خطوات ثم انحنى بهامته قليلاً واستدار.

وفي طريق العودة إلى مخيمة داهمته آلاف الخناجر الوهمية، كما داهمته حورا

وسمحون وشعب أورسالم بكامله وهو يهتف ضده. وما أن وصل إلى الخيام حتى ارتمى منهكًا.

سار الليل رتيبًا مملاً يحمل في جعبته العذاب، استوقفته طويلاً نجوم السماء فحدثها عن آلامه، حاول أن يغفو مرات ولكن النوم أبى إلا أن يشهر سيفه ويظل واقفًا حتى يتنفس الصبح نسيمًا رطبًا ينعش النفس ويسرُّ الفؤاد، وما أن حطَّت أولى أعمدة الشمس على وجهه حتى وقف متثائبًا مستطلعًا وجه الحقول المحيطة بالمخيم.

بدأت دواب الفلاحين تخترق الأرض المحروثة بتكاسل وأناة، وقليلا قليلاً دبَّت الحياة في المروج، وارتفعت الشمس قامة أخرى.

ارتدى شكيم عباءته وسار نحو الحُرَّاس على باب المخيم، كانوا خليطًا من بني كنعان والفراعنة، استقبلوه باسمين وتحدثوا إليه باستحياء، أنسوا إليه فأفضى كل منهم بهمومه... وبعد لأي جاء الضابط الفتى فاتجه نحو خيمة شكيم، وعندما ضمهما المجلس قال شكيم:

- منذ البدء أرى مهمتي قد فشلت، لقد رأيت تقلب الوجوه يوم ذكرتُ النحاس أمام فرعون.

- لا تحكم على شيء قبل ظهور نتيجته، ربما عارض بعض الأشراف، ولكن النتيجة إلى جانبك.

- ولماذا تعتقد هذا؟

- ربما لأنهم يجمعون الذهب الآن في قصر فرعون استعدادًا لإثرائه في العالم الآخر.

نظر إليه شكيم مستطلعًا، فقال الضابط:

- عندما يموت فرعون يوضع الذهب تحت تصرفه في قبر فسيح يسمونه الهرم، وقد أوفد فرعون إلى مناحي مصر جنودًا كلَّفهم بشراء الذهب ونقله إلى قصره.

فرح شكيم وقال:

- هذا يعني أنكم بحاجة إلى الذهب؟

- لا، لسنا بحاجة إليه، إن الاشراف يمتلكون منه الكثير، ولكن فرعون يضع

مقادير عظيمة منه في قبره ، عندما يدعوه أوزوريس إلى عالمه هناك ، حيث يعيش حياة هادئة دون إزعاج.

- من أوزوريس هذا؟

- انه إله الموت الذي يحب فرعون ويسعى دائمًا لأن يكون إلى جانبه.

أيقن شكيم أن مهمته سوف تنجح ، فدخل الأمان إلى قلبه ، مرَّت البسمة إلى شفتيه ، فانشرح صدره وأخذ يتحدث بإسهاب عن حبه لأريحا وأورسالم وأرض بني كنعان، والضابط يستمع إليه مأخوذًا.

وعندما غادر الضابط مخيم بني كنعان جاء قائد حرس القافلة فتحدثا طويلاً عن أشياء جميلة وذكريات عزيزة ، وما أن انتصف النهار حتى جاءهما من يخبرهما أن فرعون قد أولم في الليل للترفيه عن سفراء سمحون الملك.

عندما أزِف الموعد ، ارتدى شكيم ملابس بني كنعان النظيفة ، بينما ارتدى قائد حرس القافلة عدته الحربية الكنعانية ، وامتطيا حصانيهما وحفت بهما كراديس الجنود، وسارا إلى المأدبة.

كانت المأدبة حافلة بأطايب مصر ، اصطف الأشراف على جوانب القاعة ، بينما خلت قاعة صغيرة في صدر المكان لفرعون وخاصته ، جلس فيها شكيم مع قائد الحرس يتحادثان، وما هو إلا بعض الوقت حتى وقف الجميع، ثم ركعوا، وأُعلن عن قدوم فرعون ، تقدم إليه شكيم ونفحه بكلمات الشكر والامتنان على إكرام سفراء سمحون إليه ، وردَّ عليه فرعون بكلمات ترحيبية جميلة، ثم بدأوا يأكلون.

اهتزت أعمدة القاعة طربًا على أنغام موسيقى جميلة مرحة ، وجامل فرعون ضيفه فحدثه بإسهاب ، وردَّ عليه شكيم بأدبٍ جمٍّ وكلمات قليلة. وعندما انتهى الطعام جاءت سمراوات مصر فانثنت أجسادهن مع الموسيقى بدلالٍ وخِفة ، وأخذ شكيم بجمالهن فأخذ يقيسهن بنظراته طولاً وعرضًا وارتفاعًا. ولمَّا مضى من الليل جزءٌ ؛ سكنت الموسيقى ، وأُعلن أن فرعون سوف يغادر القاعة ، فانتبه شكيم إلى نفسه وهمس إلى قائد حرس القافلة:

- إنه كرم لم نعهده، ولكنهم وعدونا بالأمس أن يردوا بما عرضناه عليهم !!

- صبرًا يا شكيم، ربما لم يتوصلوا إلى قرارٍ بعد.

تحرك فرعون وهمس إلى شكيم أن رُسله سيأتون إليه في هذه الليلة لزيارته في مخيمه، فانفجرت أساريره وانحنى لفرعون احترامًا.

هشَّ لهم واستقبلهم في صدر خيمته، ولكنه اكتشف من نظراتهم خيبة الأمل، فاستعجلهم القول، فردَّ أحدهم باقتضاب:

- سيدي رسول سمحون العظيم الملك جارنا الطيب، لقد جئتنا في وقت نحتاج فيه للنحاس لتسليح جيشنا وإعداده، ولذا فإن فرعون العظيم لا يمانع في نقل النحاس إليكم، ولكنه يشترط أن يُوزن النحاس بالذهب.

ذهل شكيم وقال:

- ماذا تعني أيها الرسول؟

- أعني قطعة النحاس تساوي قطعة الذهب وزنًا وقيمة.

وضع شكيم كفه على عينيه واعتصرهما بقوة وقال:

- شكرًا لفرعون العظيم، سوف أنقل هذا لسيدي سمحون الملك فيرى فيه رأيه.

قام الرُّسل وغادروا، وشيّعهم شكيم بنظراته، وعندما ابتعدوا عن المخيم، ارتمى على الأرض بوهن وقال لقائد حرس القافلة:

- إنها معجزة ألقاها فرعون، لنرحل دون النحاس.

قال القائد:

- سوف نعدُّ القافلة للعودة، فأذن لنا في الرحيل الليلة.

عندما كان الجنود يسرجون الجياد ويُعدُّون الإبل للرحلة الطويلة كانت قطرات من الدمع تسيل على وجه شكيم فيترك لها العنان لتسبح نحو العنق.

كانت الصحراء أمامه ظلاً من الخوف والعذاب، وجوه الجُند ذابلة تنمُّ عن الخيبة والمرارة، والخيول تسير ببطء كأنما لحقها الحزن فباتت تلهث دون أن يصيبها التعب، كلهم سكوت إلا خطوات الإبل تحمل إليهم هسيسًا وهي تدوس الرمل بأناة وتثاقل.

حملت إليه النسائم الطرية وجه حورا، كان وجهها عابسًا علقت عليه الأتربة واعتلاه الغبار...

صرخ شكيم بملء فيه فجاءه قائد القافلة، وطلب إليه أن يتوقف كيما يستريح.

نامت الإبل ليلتها في الصحراء ، وعاودت الحمى شكيم في نفس المكان الذي أصابته فيه وهو متجه إلى مصر فأخذ يهذي ويتألم.

تعكر جو الصحراء فجأة ، ارتفع الغبار إلى عنان السماء ورغت الإبل وصهلت الخيول وسمع شكيم صوت دق الأوتاد وتثبيتها في الرمال الرخوة.

حملت إليه الريح القاسية غبارًا دخل إلى حلقه، فسعل بقوة وتحامل على نفسه ونظر من باب الخيمة ، فرأى جحيمًا من الرمل والغبار يهجم على رجال القافلة فتحملهم الريح إلى وجه الأرض ، فينهضون ثانية ويستميتون في تثبيت أوتاد الخيام والإبل ، لكن ساقاه خانتاه فانكفأ على الرمل وغرس وجهه فيه ولم يعد يشعر بما حوله.

صرخ الجنود بكل ما يملكون من وهنٍ وقوة : العاصفة تأخذ الإبل بعيدًا... أيها الرجال، الحقوا بها إنها تتيه في الصحراءً... وتفرق الجنود كل إلى جهة، وازدادت العاصفة عنفًا، اقتلعت الخيام وألقتها بعيدًا.

عندما أفاق شكيم في الصباح حاول أن يتحرك، لكنه شعر بثقل على جسده، كان الرمل قد دفنه حتى نصفه ، نهض بوهنٍ ثم نظر فأُصيب بحالة من الذعر لم يعهدها في حياته... كانت الخيامٍ مدفونة تحت الرمال والنصف الآخر ظاهرًا يدل على آثار الكارثة... سار متمهلاً ورفع بعض الملابس المدفونة فلم يجد آثارًا لأصحابها ، طوَّف نظره في الصحراء فارتدَّ إليه بصره ينعي أصحابه ، ركض في اتجاهات الصحراء يصرخ ، ويصرخ ، فلا يسمع إلا صوته... أحسَّ بحلقة يكاد ينفجر ، لم يكن هناك ماء ولا طعام ، وأيقن أنه سيهلك مثل أصحابه ، فطفرت دموعه دون ضوابط.

وافته القوة فجأة فأخذ يركض مسرعًا ثم يقف على التلال الرملية الناتئة مناديًا مستغيثًا.

ارتفعت الشمس قامة أخرى، وبدأ العرق ينساب على جبينه، ثم ازدادت حرارة الشمس فتلونت ملابسه بدفقٍ من الماء النابع من مسامات جلده. وعن بُعدٍ كان هبوب الريح يبدو للناظر مرعبًا وهو يحمل ذرات من الرمل منساقة إلى حيث التلال القريبة..

- آهٍ يا شكيم، وفلاح حبرون الشقي، تأتي لتعود بالنحاس فيضيع منك الذهب ويُدفن الأصدقاء تحت وهج الرمال.

توقف، ثم قال له رأسه: واصل السير فلا فائدة من التوقف. شعر بعطشٍ مفاجئ، نظر حوله غريزيًا يبحث عن الماء، كان السراب يموج أمامه مثل الضبابٍ فأسرع نحوه، لكن خطواته كانت تتثاقل وتتثاقل، حتى لم يعد يقوى على السير.
- يا سارح، يا إله الزراعة والري، جد لي بملء كفي ماءً، فأعطيك حياتي.

سرت سخونة الرمل إلى أصابع قدميه فأحسَّ بالجمر يشويها، تمايل جسمه ثم استقر على الرمل، ارتفعت راحته إلى شفتيه ببطء فألفاهما كحطبٍ جاف، وغامت حول عينيه الأشياء... ،حاول النهوض، لكن وجه حورا النظيف جاءه بابتسامة عذبة فمدَّ يده إليها فاصطدمت بدفق من الرمل المغروس حول جسمه، وشجت الرمال جلده فنهض على ركبتيه بتثاقل.

- أيتها الشمس القاسية، يا سمحون العظيم، أيتها الـ"حورا" النائمة على سرير من الضباب، أبي، أمي...

تحامل على نفسه بجهدٍ ونهض، مدَّ بصره الكليل عبر الأُفق، فلم يرَ غير السراب، ونقلت الريح إليه صفيرها فعلم أن عاصفة تستعد ثانية للهبوب...

- لن تكون جثتي علمًا في الصحراء، سأحفر قبري بنفسي وأُواريه التراب.

انسابت أظافره تحفر في الرمال، ثم توقف بعد هنيهة، لم يعد يقوى على مواصلة الحفر...

- يا شعب أورسالم العظيم، لا تلعن شكيم الذي مددت إليه يدك قبل رحيله إلى أرض الفراعنة.

بدأ الهبوب خفيفًا في البداية، ثم تكاثر حوله، فلم يعد يميز إلى أي اتجاه ينظر، خانته قدماه فانحنى، ثم سقط كنخلة هوت بعد أن قُصَّ ساقها فجأة.

• • • •

حـــــــورا

جلست حورا ترقب الغيب في شرفتها، وأطلَّ من بين الزيتون وجه شكيم الممرَّغ بالدفء والحياة ، فسرت في جسدها رعدة خفيفة كطيف مرمر السحاب ، ونهضت إلى مقصورتها.

وشكيم لا يأتي من الأبواب رغم فتحها على مصارعيها ، قفز إليها ، فاحتضنته بقوة...

- أواه يا شكيم، ما كنتُ أحلم أن تغادرني بهذه السرعة.
- لكِ نفسي يا حورا، سأعود إليكِ مثل العاصفة محملاً بما يعترض طريقي.

كان الظلُّ قد نشر حُبيباته على أوراق الشجر القريب من النافذة الواسعة ، وشقَّت الشمس طريقها عبر الأوراق لترسم في المقصورة ظلالاً جميلة...

نظر إلى عينيها فألفاهما مثل مناجين العسل الذي يُقدَّم في أعراس أورسالم ، قبَّلها وتدرَّج فمه إلى وجهها النظيف وعُنقها البض، واختفى كل شيء من ناظريه، دار العالم دورات كثيرة وسريعة، ثم اتكأ على مرفقها...

- آهٍ لو أني أعيش العمر كله أنظر إلى عينيكِ؛ ما مللتُ.

سرت في القصر ضجة مفاجئة، هرع إلى الشرفة فرأى الحُرَّاس يحملون قافلة الجمال بالذهب ، لحقته حورا كئيبة حزينة ، ومدَّتْ نظرها إلى الأُفق الذي غسلته الشمس فغدا مثل الضباب الصيفي.

- حورا، هي لحظة لن أنساها، أغادرها وقلبي يسرح ممتشقًا حُسامه، ولكنه يُلقي بسلاحه عند قدميكِ ليعلن أنه مِلكٌ لكِ مهما قسا الزمان.
- شكيم، تذهب راشدًا وتعود ممجدًا، قلبي يقفز من صدري، ولن يعود إليه إلا عندما تعود.

قبَّلها ثم مسح دموعها بكفه وخطا إلى باحة القصر ، كانت القافلة قد جهزت بانتظار إشارة من سمحون كي ترحل...

قال الملك:
- على بركة أرض بني كنعان تغادر القافلة إلى مصر.
وردَّ شكيم بأعلى صوته:
- باسم سمحون العظيم، حامي أرض بني كنعان وسيدها، تغادر القافلة الأرض التي تدرُّ اللبن والعسل.

تابعته بنظراتها مشغوفة حتى غاب في الأُفق، ثم تجمَّد جسدها فوق المقصورة مثل تمثالٍ مرمريٍّ جميل، وواتتها نوبة من البكاء الصامت، كانت دموعها تنساب من عينيها مثل البرد، لكنهما مفتوحتان على سعتهما كأنما تجمدتا...

- أواه يا شكيم، هل كان يجب أن تقع الحرب كي تغادرني؟؟

لمحت حُرَّاس القصر وهم يجوبون الباحات في حركة نشطة. وقالت لنفسها:
- ولكن الحرب هي التي أوصلت شكيم إليَّ.

انسابت في نفسها الذكرى عطرة جميلة فابتسمت، وأفاقت من شرودها على صوت سمحون يناديها، فغادرت إليه مسرعة.

- حورا، أيتها الأميرة الجميلة، سوف يعود إليكِ فلا تحزني.
- ما يحزنني أنه مرَّ عليَّ مثل السحاب فسقاني من مطره دون أن يرويني.
- غدًا يعود، فجهزي أمر نفسك لاستقباله، سوف أترك هذا القصر لكما وآوي إلى بيوت الطين فأغتسل مع الفلاحين في ندى الفجر فوق سهول أورسالم الحبيبة.
- وأريحا التي تئن تحت وطأة غاز ثقيل؟
- آه... أريحا، إنه الجرح الذي ينزف من قلبي صديدًا ووجعًا.

تركته ثم انسابت عبر أروقة القصر بخفة، فناداها:
- حورا، سوف أنقل إليكِ أمرًا طالما فكرَّتُ فيه: لن يكون هناك حُرَّاسٌ للقصر، لقد قررَّتُ أن يكون بيتي مفتوحًا على سعته دون حِراب.
- هو عين العقل يا أبي.

وانتظرت علَّه يقول شيئًا آخر، لكنه ظلَّ على صمته، فغادرت مستأذِنة.

• • • •

جاء الليل ، وحورا التي أحزنها أن يغيب شكيم عن ناظريها فردت وجهها بابتسامة عذبة مثل الربيع ، ثم انسابت إلى الإسطبل فأسرجت فرسها واعتلته واتجهت نحو البيوت الطينية.

عند مدخل الزقاق ربطت الفرس في حلقة حديدية مغروسة في بطن السور ، واتجهت بخُطى قوية ولكنها متثاقلة، حيَّتْ جمعًا من الناس يتسامرون حول نار قربت أن تخبو ، فهبُّوا واقفين ، ثم غادرتهم بعد أن سقطت ابتسامتها على وجوههم مثل النعاس.

أوغلت في الزقاق ، وكلما ابتعدت ازدادت وحدتها وتملكتها الوحشة ، وسرت في رأسها أفكار الأمس وذكرياته وهي تعبر الطرقات متكئة على زند شكيم القوية.

- أيها الولد الشقي الحبيب ، أنت تذرع رمال الصحراء جيئةً وذهابًا ، ويأكلك الخوف والقلق، بينما تنعم حورا بدفء أزقة أورسالم.

واصلت سيرها ، ثم اتكأت على جدار قرب نافذة صغيرة ينبعث منها ضوء ضعيف، سمعت همسًا، فأصغت.

- أتدرون؟ ذهب شكيم إلى أرض مصر ليستبدل النحاس بالذهب.

ردَّت امرأة:

- شكيم مثل أوراق الأشجار يتجدد مع كل ربيع، لا تخافوا.

قال ثالث:

- ليتنا كنا معه فنحميه ويأمن غائلة الطريق.

قال صوتٌ ل شيخٍ عجوز:

- سيعود لأن حوراً في وجدانه وفي عقله.

ابتسمت حورا ثم واصلت سيرها بين الأزقة مصغية لما يقوله أبناء أورسالم.

- أتعلمون أننا جمعنا من السيوف ما يكفي لقهر الأعداء؟

- لكن سيوفهم قوية ، بعضٌ منها مصنوع من النحاس وهم يملكون العربات الحربية.

- لقد تعلموا فنون صُنعها من جيش فرعون إبان وجودهم في مصر.

- سوف نقهرهم...

- أتدرون أن ملك بني كنعان القادم سوف يحمل بعضًا من دم الشعب.
- إذا سارت الأمور وفق ما نتمنى.

ضحكت ثم تابعت سيرها، وعند نهاية الزقاق افترشت الأرض متجهة بنظرها نحو الأُفق.

وما عتم صوتٌ أن أتاها من خلال العتمة فارتجفت.

- حورا... لِمَ أنتِ حزينة يا ابنة الملك العظيم؟

تلفتت حولها فلم تجد أثرًا لأحد، قالت والخوف يمدُّ يده إليها:
- من الذي يحدِّثني؟

جاءها الصوت ممزوجًا بضحكة خفيفة:
- لا تخشِ شيئًا يا حورا، إني صديقٌ أجوبُ الطرقات ليلاً فأُواسي من تنوشه الهموم.

اتجهت بنظراتها نحو الصوت، فتقدَّم رجلٌ عجوزٌ نحيل....
- أنا شاحور بن سرجون، ألم يحدِّثكِ عني شكيم؟

انفرجت أساريرها وبدأ الخوف يذهب عنها، ولكنها لم تجب...

- أعرف أنكِ قلقة، لكنه سيعود.

ابتلعت ريقها وقالت:
- هل تعرفه أيها الشيخ الصالح؟
- وهل لا يعرف الإنسان روحه يا ابنتي؟

انتبهت كل حواسها إليه.

- شكيم ابن هذا البلد، كلهم يعشقونه كما أنتِ.

ارتجفت وقالت:
- ولكن عشقي له مختلف تمامًا.
- أعرف ما تفكرين به، لكني قصدت أن شكيم إن عاد فهو لكِ، وإلا...

قاطعته بحدة:
-لا تقل "وإلا" أيها الشيخ الصالح.

تابع الشيخ حديثه:

- وإلا فخسارته تعنينا أكثر مما تعنيكِ.

- كيف؟ كيف أيها الشيخ؟

- يا ابنتي، كوني له وفيَّة مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس.

- أنا كذلك أيها الشيخ.

قال الشيخ وهو يتجه بخطواته نحو الظلام:

- من يدري ما تخبئه الأيام... من يدري؟؟

نادت... ولكنه كان قد اختفى...

أخذ رأسها يعمل بسرعة: كوني له وفيه مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس.

اتجهت خطواتها مسرعة نحو بيت أبيه، طرقت الباب، ففتحه الشيخ بتؤدة.

- حورا، أيتها الأميرة الجميلة، ماذا تفعلين في هذا الليل الصامت؟

- لم أجد للنوم طريقًا، فالتجأتُ إليك.

هرعت إليها أم شكيم، فتلقفتها بقُبلة ناعمة:

- تفضلي يا ابنة سمحون العظيم

ولجت خطواتها البيت، فأحسَّتْ برعشةٍ تسري في جسدها... افترشت جلد ماعز مهترئ وأخذت نظراتها تجوب المكان: هنا كان يأكل، وفي هذه الزاوية شهد أحلامه وأمانيه، ومن هاتين اليدين المعروقتين نما وترعرع، ومنهما أيضًا أكل الطعام وذاق العسل.

- بم تفكرين يا ابنتي؟... سيعود حتمًا، إني أعرفه.

نظرت إليها طويلاً، ثم تجمع الدمع في عينيها مثل بلورات صافية لا تسقط.

- أنا أيضًا أعرفه، سيعود محملاً بالنحاس ليجلب لنا النصر.

تذوقت اللبن، لكنه كان مُرًّا، ثم مدَّتْ يدها نحو العسل فكان مذاقه مثل العلقم.

قالت فجأة:

- أيها الشيخ الجليل، قد عزمتُ بعد أيام على أن أجري مبارزة بين الناس؛ أيهم يستطيع صنع أكبر عدد من السيوف من مطلع الشمس حتى مغيبها.

نظر إليها الشيخ باستغراب، وقال:

- نِعم الرأي با ابنتي، هلا وجدتِ لي عملاً أستطيعه في هذا؟
- من أجل هذا أتيتُ إليك ، سأخصِّص جائزة لمن يفوز.
- وما الجائزة أيتها الأميرة؟
- سأكتب اسمه على صدري موشى بالذهب ، ثم أمنحه حصاني وأعطيه عدة حربية ملكية.
- هذا رائع أيتها الأميرة.
- منذ الغد أيها الشيخ الجليل ، تنادي في الناس وتنشر الخبر ، ولتكن ساحة المبارزة حلبة الرقص في وسط البيوت الطينية.

نظرت فرأت الحبور والسرور يسريان على وجهيّ الشيخين ، ثم نهضت وهي تتمتم ببعض الكلمات: كوني له وفيه مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس.

أفاقت حورا من نومها مذعورة ، فقد داهمتها الأحلام وبكت طوال الليل ، رأته يذرع الصحراء وحيدًا تنتظره الذئاب بين كثبان الرمال ، وفي كل مرة كان يمتشق سيفه ويهاجمها فتهرب أمامه ، لكنها كانت تتجمع زرافات وتعود للهجوم عليه فيتلقاها بسيفه ، فتهرب ثانيةً أمامه لتعود وتجمع نفسها من جديد.

وعندما أفاقت من نومها كان وجه شكيم أخر ما لمحته مضخمًا بالدم في أكثر من موضع ، رداؤه يلتصق بجسده مبتلاً بالدماء ، وعيناه ضارعتان إلى وجهها تطلبان العون منها...

هرعت إلى مشجب في مقصورتها ووقفت مذهولة ، كانت بُقع الدماء تغطّي رداء شكيم المعلَّق ، تمامًا كما رأته في الحلم ، ممزقًا مهترئًا كمن فيه جثته... صرخت برعب ، وردَّد القصر صدى صرخاتها ، فهرعت إليها الملكة تضمها بحنان إلى صدرها وتهزها...

- حورا، ما بكِ أيتها الحبيبة؟

ربتت على خدها مراتٍ ومرات.... كانت تصرخ وعيناها مفتوحتان على سعتهما تحدقان في المشجب... ثم دفنت وجهها في صدر الملكة ، فسرى الخدر والسخونة

إلى وجهها النظيف المبلل بالدموع... وأحسَّتْ يدًا تخلل شعرها، فنظرت ثانيةً إلى المشجب... كان رداء شكيم نظيفًا مثل أشعة الشمس.

- ما بكِ يا حورا؟ أجيبيني أيتها الحبيبة.

ركعت حورا على ركبتيها وابتهلت:

- اعده إليَّ يا سارح ممجدًا كنخيل مصر، عظيمًا مثل قنوات الري في بلاد بني كنعان.

هرع سمحون إلى مخدع ابنته وصاح:

- سارح لن يعيده إليكِ إذا ما أصابه شرٌّ، أو لحقت به منفعة.

نهضت حورا فزعة... خلع سمحون عدته الحربية وهرع إلى باحة القصر يحمل معولاً وهو يصيح:

- أيها الناس، يا سكان أورسالم، من يحب سمحون الملك فليأتِ إلى قصره وفي يمينه معوله.

ظنت حورا أن مسًّا قد أصاب أباها فهرعت إليه، استوقفته فرفض أن يتوقف...

- حورا، سارح يأمرني بهدم معبده في أورسالم لنقيمه في أريحا.

تراجعت مذعورة، لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها وهو يتابع...

- شكيم يريد هذا... وشاحور بن سرجون كذلك.

وقفتْ في منتصف الطريق كالبلهاء، ثم استدارت فجأة وقد لمع اسم شاحور في عقلها وبرق شكيم في وجدانها: كوني له وفية مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس.

حملت معولاً ولحقت به، وما إن رآها عن بُعدٍ تحمل معولها حتى حدثته نفسه أن كل شيء يمكن أن يتحقق من خلال الحب. رافقته كظله وهو يصرخ في الناس :

- يا سكان أورسالم، من أحبني ووقف إلى جانبي فليذهب إلى معبد سارح، وليعمل معوله في هدم حجارته وتهديم آثاره، سارح يأمرني أن أهدم معبده هنا لأقيمه في أريحا، ولن يرضى عنا إلا إذا بنينا معبده هناك، عندما نطرد العبريين من بلادنا.

ولم تنم أورسالم ليلتها إلا والمعبد أنقاضًا لا أثر لأعمدته... وقفت حورا على أطلاله، وقبل أن يتفرق الناس؛ وقف الشيخ الجليل أبو شكيم إلى جانبها وهو يصرخ:

- يا سكان أورسالم، قد عزمت الأميرة على أن تقيم مبارزة بين الناس أيهم يستطيع صنع أكبر عدد من السيوف من مطلع الشمس حتى مغيبها، وستكتب اسم من يفوز على صدرها موشى بخيوط ذهبية وتمنحه حصانها وتعطيه عدة حربية ملكية.

رفع الناس رؤوسهم نحو الفضاء، وصرخوا، فحمل إليهم المساء صدى أصواتهم القوية.

••••

ومضت ليالٍ أخرى... وحورا التي تنتظر الغيث أن يأتي من مصر تجلس إلى شرفتها أصيلَ كل يوم فيرتد إليها بصرها كليلاً بعد طول تحديق في الأُفق، تقتحم عيناها سريرها الخالي من الدفء فتصاب بالرعشة وتسري في أوصالها الظنون، تجوب موارس القمح في المدينة وعينها على القوافل الرائحة الغادية، علَّها تحظى بأول نظرة منها إليه قد تعيد إليها الحياة... تقطف الزهور وتزرعها في القصر كيما تمسها يده عندما يعود، لكن الزهور تذوي قبل أن يأتي، فتعيد القطف من جديد...

لم يعد لها من الأمس غير الذكريات، شهور وهي تقف على الشرفة آملة أن يعود...

وتنساب في رأسها ذكرى عزيزة، يوم أعلن الملأ من أهالي أورسالم أنهم لن يستمروا يطرقون السيوف وينتظرون، سيبعثون برُسلٍ إلى مصر لاستقدام شكيم وسيهبطون على العدو مثل القدر، ويومها وقف الشيخ الطيب أبو شكيم وهو يصرخ بكل ما عنده من وهنٍ وقوة:

- أيها الناس، اليوم هو موعدُ المبارزة، فلتكسبوا ثقة الأميرة.

امتلأت ساحة المدينة بالمطارق وأدوات صنع السيوف، جلس سمحون على كرسي حجري في طرف الساحة، بينما وقفت حورا إلى جانبه استعدادًا للنزول إلى

المتبارين كي تبعث فيهم الهمة والنشاط، وبإشارة من يدها زلزلت أورسالم زلزالاً لم تعهده من قبل، آلاف من الأيادي تطرق دون كلل أو هوادة، أجساد يسوح فيها العرق مثل نهر ليس له من ضوابط، عيون تختلس النظر إلى جيرانها علّها تكون قد سبقتها فتسرع في إنجاز ما باليد كي تفوز....

وتسرح حورا في ثوبها الفضفاض بين المتبارين مشجّعة منادية، وكلما اقتربت من أحدهم ولمح طيفها ازدادت طرقاته وعلا صوته وجرى عرقه...

آلاف من النساء وقفنَّ في أطراف الساحة يسقين العطشى وينفخن الحياة فيمن خانه ساعده فيعود إلى العمل... أولاد أورسالم كانوا يغنون لمن يطرقون، وبعضهم كان يشجِّع الآباء على مواصلة العمل، وبعضٌ آخر كان يحمل رجاءه إلى الأميرة أن يفوز أبوه؛ فتضمهم إلى صدرها وتحنو عليهم، ثم تعود ثانية إلى الساحة تشد أزر المتبارين.

وعند انتصاف النهار كانت ميازيب العرق واحتقان وجوه المتبارين دافعًا للأميرة لأن تعلن راحة قصيرة يتناولون فيها طعامهم ويتذوقون ما أتت به نساؤهم من الأطايب. وبطرقة واحدة جماعية توقف العمل.

قال سمحون:

- أيتها الحورا، لولا حُب شكيم لما فعلتِ الأعاجيب.

وقالت حورا لسمحون:

- أيها العظيم، لولا حُبه لما عادت الروح والحياة إلى بني كنعان.

وبين ضحكٍ وابتسام؛ نزلت النساء إلى جزء من الحلبة ورقصنَّ وانتزعنَّ التصفيق والهتاف.

- أيها الغائب البعيد، أما كان أجدر بك أن تحضر هذا المهرجان فتقرّ به عينك.

دمعت عيناها، وعن بُعدٍ لمحت الشيخ الطيب يصفِّق فرحًا وقد افترَّ ثغره عن أسنان مهترئة، فركضت إليه وربتت على كتفه وقالت:

- لو كان هنا لأمتعنا برقصه وغنائه.

- أيام ويعود، أعرفه مثل الغِلال في كل سنة يزيد.

وقفت إلى جانبه تمازحه، ولفتا إليهما أنظار الجمع كافة... ثم عادت بعد لأي قُرب أبيها لتعلن عن انتهاء الرقص وبدء العمل.

تسارعت الأرجل إلى احتلال مواقعها والأيادي على المطارق، لم يكن الحماس مشتعلاً كما كان في الصباح، فقد ثقلت الأيادي وتاقت العيون إلى إغفاءة قصيرة، ولكن طيف الأميرة عندما كانت تمر بالمتبارين يزيدهم قوة ويدفعهم إلى المواصلة.

ها هي الشمس تؤذن بالمغيب، وحورا تصدر أوامرها بإيقاف العمل، فتنزل إلى الحلبة مثل هبوب النسيم لتسجِّل وتُحصي ما أُنجز من السيوف، ثم تعود إلى موقعها...

جفَّتْ القلوب، ووضع كل من المتبارين يده على صدره بانتظار النتيجة، كانت دقائق مشوبة بالقلق والانتظار... وعندما أعلنت الأميرة عن الفائز؛ هتفت حناجر أورسالم فرحة مفتخرة، فبكى سمحون تأثرًا، ثم طلبت إلى الفائز أن يتقدم، فجاء رجل عجوز يتوكأ على عصاه يسير الهوينى، وعندما رآه الملك وقف على رجليه مصعوقًا.

- مَنْ؟ شاحور بن سرجون، أيتها السماء، ما كنتُ أظن أن بك رمق من قوة، وعيناك... يا إلهى.
- لقد عاد إليَّ بصري عندما عادت الحياة إلى بني كنعان.

قالت حورا:
- أيها الشيخ الصالح، لقد علَّمتنا درسًا لن ننساه أبدًا.

وذهلت أورسالم، فهذا الذي يجوب الطرقات ليلاً متوكئًا على عصاه قد فاز على شباب سواعدهم تدير طواحين المدينة وتملأ الأرض بالغلال.

قالت حورا:
- فلتتقدم أيها الشيخ الصالح لتتسلم جائزتك.

قال شاحور:
- عفوًا أيتها الأميرة، ما بي حاجة إلى الجائزة، إن جائزتي أن تسمحي لي ببعض الكلمات.

قالت الأميرة:
- قلها أيها الشيخ وكلنا آذانٌ مصغية.

قال الشيخ:

- يا أهل أورسالم، قال لكم سمحون يومًا: "بالسيف وحده يحيا الإنسان"، وأنا أقول لكم: بالسيف والعقل معًا... هل ننتظر العدو لنحاربه، أم نذهب إليه لنخرجه من ديارنا؟

ارتفع الصراخ في الحلبة وشق الفضاء... ومن بين الصراخ ميَّز الجميع الكلمات:

- بل نذهب إليه أيها الشيخ.

قال الشيخ:

- لن ننتظر قدوم شكيم... إن سيوف الفولاذ مثل سيوف النحاس تمامًا، والذى ينتصر من عرف كيف يستعملها... منذ الغد نرسل وفدًا إلى مصر كي يعود شكيم، ومنذ الغد نجهِّز أنفسنا لاقتلاع العدو من أرضنا.

قال سمحون:

- أيها الشيخ الصالح، أمهلنى بعض الوقت لأجد طريقة مجدية لتنفيذ رغبة بني كنعان.

قال الشيخ:

- إن سمحون العظيم لا يُراجع في ما يأمر به.

قال سمحون:

- بل هي رغبة أُبديها لإيجاد أنجح السُّبل.

وفي غمرة الصراخ والهتاف تطلعت الأميرة حولها فافتقدت شاحور، ودارت عيناها على الجمع علَّها تعثر عليه، ولكنه كان قد اختفى مثل ملحٍ ذاب في ماءٍ ساخن.

• • • •

سرحت في الأزقة مثل ظبي هارب.

(أيها الليل الذي يحلو له أن يداعبنى: كف عن القدوم، وليبق ضوء الشمس مفرودًا على الموارس)

اتكأت على جدار تعبه، فمنذ أسابيع وهي تجوب الأزقة فلا تسمع إلا تذمرًا

لتأخر القتال وتنديدًا بما هم عليه من حال وإخوتهم في أريحا يبعثون في كل يوم رسلاً يستثيرون همة الملك بأن يقاتل.

وأخيرًا قرَّ رأيها أن تجابه سمحون بما يعتمل في نفسها... وعند اجتيازها مدخل الزقاق جمدت في مكانها ، كان سمحون يجلس إلى حجر على طرف الزقاق ودموعه تلمع في ضوء القمر.

- ما بك أيها العظيم سمحون؟
- ما يحزنني أنني أعطيتُ وعدًا دون أن أستطيع تنفيذه.
- بل تقدر يا أبي فالجميع معك.
- أعرف هذا ، ولكن خزائني فارغة ، من أراد الحرب حسب لكل شيء حسابه ، ذهب شكيم بالذهب ولم يعد، ولا أخفي عليك أن الظنون تساورني.

فتحت عيناها فزعة:

- اتشك بشكيم يا أبي؟
- يا حورا، شهور مضت ولم يعد، لا أخبار أو ما ينبئ بقدومه.
- شكيم روح أورسالم ، فهل تفقد المدينة روحها بسهولة؟ فلنبعث إليه الرُّسل غدًا.
- هذا ما نويته.
- أبي، القتال بالسيوف لا بالذهب، وخوض القتال بالجيش لا بالخزائن، يكفي أن يقف أهل أورسالم ومُدن فلسطين معك في كل ما تقرَّره.
- هذا صحيح يا ابنتي، ولكني أخشى أن لا نستطيع أن نواصل ونقف في منتصف الطريق.

جاءه الصوت رخيمًا من خلال العتمة:

- بل تستطيع أن تواصل أيها الملك ، من كانت إرادته صلبة مثلك ؛ لا يقف في منتصف الطريق.

تقدَّم شاحور بخطوات وئيدة...

- أين أنت أيها الشيخ الصالح، لماذا تركتني كل هذا الوقت؟
- أتركك لأني أخشى أن يصبح شاحور هو الملك.
- كيف هذا أيها الصالح؟
- عليك أن تتخذ قرارك بنفسك دون مساعدة من أحد.

- هل سمعت ما طرحته حورا؟
- سمعته، وإني إلى جانبها.
نظر الشيخ إلى حورا وتقدَّم منها:
- كوني وفية له مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس.

تحرك شاحور باتجاه العتمة، لكن صوت سمحون أوقفه:
- لا تتركني في محنتي أيها الشيخ.
- عليك أن تتدبر أمر نفسك بنفسك.
- أشر عليَّ أيها الشيخ.
- لا تتردد، إذا اقتنعت بأمرٍ ما فخض غماره دون خوف، فالنتيجة في صالحك.

اختفى شاحور في العتمة... أطرق سمحون بعض الوقت ثم وقف فجأة واتجه إلى ابنته وهمس:

- حورا، على بركة أرض بني كنعان نبدأ بالاستعداد للأيام العصيبة القادمة.

أصاب حورا فرحٌ طاغٍ وقالت:
- أتحارب أيها العظيمٍ؟

- هذه رغبة بني كنعان، فبالسيف والفكر وحدهما يحيا الإنسان.

ثم تركها وغاص في بطن العتمة راكضًا إلى فرسه المنزوية عند أسوار المدينة، وما كاد يبتعد حتى جاءه صوت حورا مثل رنين الذهب:
- أيها الناس، يا بني كنعان، يا أهالي أورسالم الحبيبة، يقول لكم سمحون: "بالسيف والفكر وحدهما يحيا الإنسان، عليكم بالاستعداد لترك منازلكم والتمترس في السهول والجبال... يا بني كنعان، يقول لكم سمحون: "عسل أورسالم محرَّم عليكم حتى تشربوه على أرض أريحا".

ما عتم الصوت أن دخل البيوت التي ذبلت عيناها من شدة النعاس، فسرت في الجو ضجة كطنين النحل، وما لبثوا أن اتجهوا نحو حورا وانضموا إليها يهتفون بمثل ما كانت تهتف، وكلما انضم إليها جمعٌ؛ أقاد المشاعل وجرى خلفها معلنًا ما كانت تعلنه، وفي بعض الوقت تحول ليل المدينة إلى نهار، وسرت الصرخات إلى عنان السماء، ووقف سمحون على شرفة قصره ينظر إلى المشاعل الزاحفة إليه

وجسده يرتعد تأثرًا ورهبة ، وكلما كان الصوت يقترب منه كان جسده كأنما يغوص في بحيرة من الثلج ليس لها من قرار.

وما عتم وجه حورا أن أطلَّ من خلال الجمع يقوده نحو القصر، تحمل في يدها مشعلاً يعطي وجهها حمرة جميلة أخاذَّة، تهتف ملء فمها وتطالب سمحون أن يلبِّي رغبة أهالي أورسالم.

تجمع الناس خلفها كموجٍ متمرد، لا تلبث أن تتكسر أطرافه عندما يقترب من الصفوف الأولى.

أجال سمحون نظره فرأى آلاف المشاعل تضيء الليل، استمع إلى هتافات بني كنعان وهم يصرون على تخليص أريحا من أيدي الغزاة، ثم رفع يده فصمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير.

قال سمحون:

- يا بني كنعان، ما هي إلا أيام حتى تكونوا في ساحة الحرب، فلتكن حربكم نظيفة، لا تقتلوا من ليس بقادر على حمل السلاح، لا تؤذوا من لا يقاتلكم، لا تحرموا أحدًا أراد العيش لذاته، وليكن زادكم خُلق بني كنعان.

ارتفعت الهتافات عالية مدوية، أشار سمحون إليهم أن يصمتوا:

- سنرسل عند الصبح قافلة كي تأتي بشكيم، فإن عاد شاركنا القتال، وإن لم يعد ففي بني كنعان ما يكفي.

شقت الهتافات ثانية جوف الظلمة ، ورقص قلب حورا كأنما هو طفل وُلدِ لساعته.

- كوني له وفية مثل وفاء سنابل القمح لأشعة الشمس، هل يأتي شكيم ليرى ما يجري.

تحركت حورا دائريًا إلى الوراء، وتبعها الجمع وقد وصل بهم الأمر إلى الرقص وهم يسيرون الهوينى إلى بيوتهم، وخلال انسرابهم في الطرقات كانوا يتناقصون ليدخلوا منازلهم لنيل قسط من الراحة بانتظار ما يأتي به الغد، ولم يمضِ طويل وقت حتى رأت حورا نفسها تحمل مشعلها وحيدة، نظرت حولها فلم تجد أنيسًا غير الليل، ورفيقًا غير طيف شكيم... اقتعدت حجرًا وغرست مشعلها بين شق حجرين في سور المدينة...

- لا تحزني يا حورا، فقد أنجزتِ الليلة عملاً عظيمًا عجز عنه أشداء الرجال.

تطلعت حولها فزعه، ثم ما لبثت ان تذكرت صوت شاحور فاطمأن قلبها:

- هل كنتُ وفيةً له فيما صنعتُ؟
- بل كنتِ أنتِ شكيم.
- أين خطواته كي تطوِّق طرقات المدينة بالفرح؟
- كان شكيم روح أورسالم.
- لا تقل كان، كأنما بك غير مقتنع من عودته.
- يا حورا... من يدري ما تأتي به الأيام.

اتجه الشيخ إليها ووضع يده على رأسها :

- يا ابنتي، طريق الصحراء موحش، يكفي شكيم فخرًا أنه زرع الحياة في نبات قرب أن يجف.
- ترى هل ينبت عودي الذاوي ثانيةً على يديه؟
- من حمل مشعل الحب لا يطفئه بيديه.

نظرت إلى السماء فألفت النجوم تعطي بريقًا أخَّاذًا، جلس شاحور بجانبها وسرح نظره في العتمة :

- حورا، لا تحزني ، منذ الغد سأخلع هذا الثوب البالي لأرتدي عُدة الحرب ، سأكون إلى جانبك.

أدارت حورا نظرها إليه وقالت:

- وهل يستطيع من كان في عمرك أن.....

قاطعها بحنان :

- أتذكرين يوم المبارزة؟
- أذكره جيدًا ، لقد علمتنا أن إرادة الإنسان خير من كل قوة.
- إذن فلتكن لديك قناعة شاحور وعزم شكيم.

نظرت إليه من خلال العتمة، كانت عيناها تشكرانه دون أن ينطق لسانها بما حواه قلبها، ثم رمت برأسها على صدره فأخذت يده تعبث في شعرها.

- يا ابنتي، لم يكن شاحور يحلم أن ترتدي أميرة بني كنعان عدة الحرب وتقاتل.

- ولم تكن حورا تحلم أن يشمِّر شاحور عن ساعده بعد هذا العمر، أنت تعطينا قوةً فوق قوتنا وعزمًا فوق ما عزمنا.

مدت نظرها عبر الأفق فاصطدمت بالعتمة، نظر شاحور إلى السماء فرأى القمر يبزغ من خلال السحب البيضاء باسمًا.

• • • •

فردتْ حورا جسمها البض فوق السرير وأخذت نظراتها تعبث في العتمة، القصر هادئ لا نأمة أو حركة، آلاف من الصور الجميلة والقاتمة تتنازعها، فتقفز تارةً عن السرير لتنظر إلى الليل وتعود طورًا إلى فراشها لتحتمي بدفئه، وما عتمت أن سمعت صوت خطوات شكيم، كانت خطواته تحمل الجرأة والفرحة إلى نفسها، أما هذه فخطوات حزينة متثاقلة ينتزعها صاحبها انتزاعًا كأنما لا يريد تحريكها، ثم ابتعدت الخطوات لتنتقل إلى حديقة القصر ذابلة متباطئة... قفزت من فراشها وأزاحت ستارة النافذة وألقت نظرة إلى الأشجار، وعن بُعدٍ رأت جسد سمحون يتحرك ببطء كأنما هو معلَّق في الهواء، تابعته بنظراتها والحزن يعتصر فؤادها، كانت تدرك أنه يعيش حالة عصبية لا يحتملها إلا الرجال الأشدَّاء، ثم قرَّ رأيها على أن تواسيه، فارتدت ثيابها على عجل وهبطت إليه، وما أن رآها حتى تجمَّد في مكانه كتماثيل الحديقة.

- حورا، أيُّ ليلٍ يأتي بك إليَّ في مثل هذا الوقت؟

- إني إلى جانبك أرى راحتي حيث ترتاح أنت.

- آه يا حورا، أية راحة هذه؟

- أعرف ما تعانيه أيها العظيم، ولذا فإني أقاسمك الهموم.

نظر سمحون إلى وجهها في الظلمة، وتناقل رأسه صورها عندما كانت صغيرة ثم تدرجت نحو الشباب.

- حورا، أريد أن أخاطبك كأبٍّ وليس كملك.

- قل أيها العظيم، إن ما تطوِّق به عُنقي من حكيم الآراء لهو دينٌ عظيم.

- ماذا لو جاء من يخبرك بموت شكيم؟

ارتجفتْ، تحوَّل النسيم الطري إلى صقيعٍ قارس.

- ما بكِ لا تجيبين؟

استجمعت كل شجاعتها وابتسمت:

- دعنا وما نحن فيه يا أبي، إننا مقبلون على مرحلة حرجة، دع كل ذهني ينصب إلى خدمتك.

- أريد جوابًا حاسمًا، لقد أصبحتِ روح بني كنعان بعد أن غاب شكيم.

ابتسمت، سارت إليه وحدَّقت في عينيه، ومن خلال العتمة قفزت دمعة على خدها كرُمحٍ متوهج:

- فلتكن حورا شكيم الضائع.

ابتسم الملك بحزن وقال:

- وليكن سمحون ذلك الرُّمح الذي به تحاربين.

قالت حورا:

- فلتذهب إلى فراشك أيها العظيم، الغد ينتظرك.

- الآن أنام قرير العين بعد أن اطمأن قلبي.

سارا صامتين إلى المدخل، ثم افترقا كلٌّ إلى مقصورته... وعندما رمت حورا بجسدها فوق السرير شعرت بأن حِملاً ثقيلاً قد أُلقي عن كاهلها...

ومن خلال إغفاءتها القصيرة القلقة، سمعت طبول الحرب تدقُّ في المدينة، فنهضت مسرعة.

• • • •

يـوشـــــع

مُذُّ كان صغيراً؛ أسرتْه نِتف اللحم التي كانت تتلقفها الأسود في قصر فرعون بعد الإجهاز على ضحيتها... يبتسم ، يضحك ، وعندما تعلو الصرخات في الساحة انتصارًا للأسد الذي تغلب على ضحيته؛ يجاري الجمع ثم يرقص بحرارة.

هذا هو يوشع ، صغيرٌ ، ثم يكبر فتلفعه حرارة الصحراء عند جبل سيناء كبيراً فيحلف أن يدمِّر العالم كي يحيا العبريون تحت ظلال زيتون فلسطين.

قال يوشع:

- أيها العبريون، أربعون عامًا وأنتم في الصحراء لا تدرون لكم وجهة، مات نبينا موسى كظمًا وغيظًا عندما استبدلنا إلهنا بالعِجل ، لا تقولوا قاتل وحدك كما قلتم له، فهل لكم في أرضٍ تُدرُّ لبنًا صافيًا وعسلاً لذيذًا لا يدانيه عسل العالم ؟

تلمظ العبريون، ثم صاح حِبرٌ لهم:

- إن فيها قومًا جبَّارين.

قال يوشع:

- خذوهم بالخديعة... ولنقطع نسلهم ونستخدم من نعقرهم لنقل الماء من نهر الأردن إلينا.

قال الحبر:

- نوافق على أن نسقي من دمائهم أرض أريحا، بحيث ينبت الزرع في أول سنة أحمر اللون مثل حنون الجبل.

رفع بعضٌ من بني إسرائيل أياديهم وضموا أصابعهم إلى أكفهم وألقوها في الهواء موافقين ، والبعض الآخر لوى عنقه واتجه نحو خيمته في الصحراء كئيبًا حسيراً يناجي نفسه ويحاول أن يقنعها.

وفي غضون الأيام التي تلت طرق العبريون سيوفًا عديدة من النحاس وجمعوا سيوفهم التي نقلوها من أرض فرعون استعدادًا لما يأمرهم به يوشع.

وعندما أيقن يوشع أن الوقت غدا ملائمًا لتهديم أريحا واحتلال فلسطين حدث ما لم يكن بحسبانه ، فقد تقاتلت طائفتان من بني إسرائيل أيهما يحمل موكب الكتاب المقدس أثناء التوجه نحو فلسطين، ولعب السيف في هذا الخلاف لعبته،

جرت الدماء وأصرَّ كلٌ على موقفه... وفي لحظة يأس أعلن يوشع أنه عائدٌ إلى مصر، وليكن هنالك حتفه.

ثم أنه بدأ يعد العُدة للرجوع عندما جاءه الحبر الأكبر معلنًا أن الطائفتين اتفقتا على تأجيل صراعهما حتى دخول أريحا، وليكن الموكب من نصيب الأحبار.

وهكذا نقش يوشع على حجر في وسط الصحراء تاريخ الزحف وبدء المعركة.

• • • •

وقفت جيوشه على مبعدة من أريحا، وأرسل العيون كي تأتيه بالأخبار...

قال أحدهم:

- هم شعبٌ من الجبابرة، لكن أسوار أريحا قديمة العهد لا تثبت أمام الضربات القوية.

وقال ثانٍ:

- احذروهم، إنهم لا يكفِّنون موتاهم بل يلقونهم لسباع الطير.

وثالث نصح يوشع بالانسحاب ثانيةً إلى الصحراء حتى يحين الوقت، فكل بني كنعان في أريحا متمنطق بالسيف لا يتركه في صحوه ومنامه.

قال يوشع:

- فلنأخذهم غدرًا... عندما تنام المدينة ندخلها من جهاتها الأربع ثم نعمل فيها السيف بحيث لا تطلع الشمس إلا وبيوتها تندب السكان وتتحسر على ما مضى.

قال الأحبار:

- هو رأيٌ حسن.

وقالت النساء:

- اتركوا لنا الأولاد بعد أن تعقروهم كي نستخدمهم لتقطيع الأخشاب ونقل الماء.

وقالت زوجة يوشع:

- جسدي خشن وإني غير راضية عنه، وقد سمعتُ أن حمَّام الدم يجعله ناعمًا مثل الحرير، أريد بِركةً من الدم أغطس فيها في كل ليلة.

قال يوشع:
- وفروا أمانيكم، فكلها سوف نحقِّقها.

وعندما جُنَّ الليل؛ أعلن يوشع عن أخر احتفالٍ يجريه في الصحراء، فأُضيئت المشاعل، ورقص العبريون في احتفالٍ دمويًّ رهيبٍ.

قال الأحبار:
- لتكن أخر ليلة لنا في الصحراء، إننا نبيح لكم فعل ما تشاءون ذنوبكم في هذا اليوم مغفورة.

وقال يوشع:
- فليكن نسل هذه الليلة من الأبكار كيما يحتلوا باقي أجزاء فلسطين.

بعضهم استنكر، والبعض الآخر فرح، لكنهم في النهاية دقوا أوتاد خيامهم جيدًا وأغلقوها جيدًا وشربوا حتى الثمالة... وما أن أعلن الصبح قدومه حتى انسحب كلٌّ إلى خيمته لنيل قسط من الراحة.

لاحت أريحا بمبانيها الجميلة فوق حُلة من الخُضرة، وفتح جند يوشع عيونهم رهبةً وخوفًا وأخذوا يعدون على أصابعهم بانتظار الليل، وعندما رسم الشفق الأحمر خطوطه الجميلة فوق سمائها شدت أعصابهم كالأوتار.

قال يوشع لجنده:
- فلنقضِ جزءًا من الليل دون نيران أو طبول أو ما ينبئ بوجودنا، وعندما نعطي إشارة البدء ادخلوها وأعملوا السيف فيها بقوة.

قال الأحبار الذين يحملون الموكب:
- كونوا رفقاء بالحيوانات فسوف نستخدمها لأغراضنا ونمِّون جيشنا من لحومها، أمَّا ما عدا ذلك فالربُّ يقول لكم هم غنيمة لنا يقتلونهم أو يأسرونهم سيان.

قال الجُند بصوتٍ واحد:
- لن يكون هنالك أسرى.

ضحك يوشع وقال:
- هكذا يريد الرَّبُ لبنيه أن يكونوا.

وفي غضون الاستعدادات حدثت أشياء مهمة في صفوف العبريين، بعضهم خاط "خروجًا" كي يعبئها بالذهب، والبعض الآخر شحذ سكينه جيدًا وافتخر أمام رفاقه بأن يكون له السبق في ذبح أكبر عدد من الأحياء، وثالث جاء إلى أطفاله

ليقصَّ عليهم رواية شعب الله المختار الذي صرَّح لهم باعتلاء ظهور أطفال (الأغيار) واستخدامهم بدل الحيوانات الصغيرة... وفي لحظة سكون وقف يوشع في جيشه خطيبًا، واستخدم السُّعاة كي ينقلوا خُطبته لمن لا يسمع :

- كونوا أقوياء ، لا ترحموا طفلاً ولا امرأةً ولا شيخًا ، قصوا الأشجار المثمرة ، لا أسرى في معاركنا مع الكنعانيين ، نساؤهم مِلكٌ لنا وكذلك أطفالهم نستخدمهم كيفما أمرنا الرب ، لا يجب أن ينجب الأطفال إذا كبروا ، لا خبز لدينا لإطعام الكِبار ، الشيوخ لا يزرعون الأرض ولا يبنون القلاع فلا حاجة لنا بهم ، كل امرأة من العبريين تخدمها امرأتان من بني كنعان ، حميرهم ودوابهم وأدوات حراثتهم ومزارعهم وبيوتهم مكتوبة لنا منذ الأزل.

صاح جنود يوشع:
- لن نكون إلا ما ذكرت.

وقال يوشع:
- ها هو الرب يأمرني ببدء المعركة، فهيا.

انطلق العبريون في منتصف الليل نحو أسوار أريحا... استخدموا المجانيق والعربات الحربية وكل ما يملكون من أدوات الحرب ، دافع حُرَّاس الأسوار ، لكنهم تهاووا واحدًا إثر آخر... وعند الصبح كانت أبواب أريحا قد حُطمت فدخل الغزاة ، وتحولت أريحا إلى بركة هائلة من الدماء ، وانطلق العبريون يعيثون فيها خرابًا لأسبوع متواصل، فقد قطعوا كل الأشجار المثمرة التي كانت تعطي أريحا رائحة عطرة وتلوِّن الأرض بكسوة من الخضرة الزاهية، ومَنْ وقف مِنْ بني كنعان أمام بيته يحمل السيف يدافع عنه ؛ هدموه وصلبوا صاحبه ودقوا يديه بالمسامير... وسيق الأطفال والنساء زرافات إلى يوشع الذي تربع فوق عرش من خشب الصندل ، ثم أمر أن يستعرض الجمع أمامه حُفاةً يستعطفونه بذلةٍ وانكسار، فكان له ما أراد.

قال يوشع:
- احمدوا الرب على أن أبقاكم أحياء...
ثم وجَّه نظره إلى حُرَّاسه وأضاف:
- فلتأخذ كل امرأة من نساء العبريين امرأتين من بني كنعان لحمل جِرار الماء

وتربية الحيوانات الداجنة، وليكن الأطفال ذكورًا بلا نسل نستخدمهم في أمور الري والزراعة حين يكبرون.

وسيق الأطفال كخِراف إلى المذبح.

ولم تمضِ شمس ذلك النهار حتى كان العبريون يقيمون احتفالاً عظيمًا: النساء الكنعانيات يحملن الخراف المشوية على رؤوسهن ويقدمنها لجنود يوشع المنتصرين، ثم يلقى الجنود عليهن عظام الذبائح جرداء... الأطفال يحملون أباريق الماء ويدورون بين الجمع كي يروي الجنود عطشهم بعد أكلة دسمة.

قال طفل لم يتجاوز العاشرة بعد أن ضربه أحد الجنود على مؤخرته:
- أين أنت يا سمحون العظيم؟ أين روح بني كنعان؟

وفي الحال غُرست حربة في صدره، وعندما دنا من أرض أريحا انكفأ على وجهه كي يشمَّ ترابها بشغف.

وقال طفلٌ آخر:
- انظر ماذا فعلوا بطفلك يا سمحون العظيم.

عاجلته الأيدى فخرَّ صريعًا، ولحقت به امرأة كنعانية كي ترفع جسده عن الأرض فعاجلتها الحِراب... ثم تتالت الضربات فرتبت مذبحة دموية بين الصخب والصراخ والضحكات.

وعندما غادر جنود يوشع مكان الاحتفال، كانت الجثث منكفئة على وجوهها والدماء تغطي المكان.

• • • •

ومضت ليالٍ أخرى... ويوشع الذي هدم أبنية أريحا يجلس على شرفة قصره يرقب فتياتِ بني كنعان وهنَّ يحملن الطين على رؤوسهن والسياط تلهب أجسادهن لإكمال أبنية المدينة التي قرَّر العبريون إقامتها، يستعرض الجمع في كل صباح ويعلو رأسه عندما تستعطفه امرأة أو يشكو له طفل من بني كنعان، فيُظهر الرأفة، ثم يوعز لجنده بقطع دابر الشاكي بالحراب.

كانت الجثث التي يُعثر عليها في جوانب الطرقات تكثر يومًا بعد يوم، وكانت الجثث التي يُعثر عليها خارج المدينة تكثر أيضًا، ذلك أن الكنعانيات كُنَّ يرتِّبن رحلات جماعية للهرب إلى أورسالم، ثم يلاحقهن الجنود في سهل أريحا، فلا تنجو امرأة.

أما أطفال بني كنعان فقد تحولوا إلى حيوانات صغيرة يلهو بها أطفال العبريين؛ يركلونها، يركبونها، فإذا ما ملُّوا من اللعب أعيدت هذه "اللِعب" إلى حظائرها الجماعية التي بُنيت خصيصًا لتسلية أطفال العبريين.

وفي غضون الشهور التي تلت؛ أقام العبريون قِلاعًا فوق الأسوار، وحصَّنوا بيوتهم بحيث غدت منيعة، وأخذوا يطرقون السيوف ويبنون العربات ويتهيأون لضرب الكنعانيين في باقي ديارهم، وفي كل ذلك استخدموا نساء بني كنعان وأطفالهم، حمَّلوهم ما لا طاقة لهم به، فكان بعضهم يهوي على قارعة الطريق جوعًا وعطشًا فلا يكلِّف العبريون أنفسهم غير حفرة صغيرة على جوانب الطرقات حتى لا تنفذ رائحة الجيف إلى أنوفهم.

وفي كل مساء، عندما ترمي شمس أريحا الصفراء خيوطها على الحقول المترامية؛ كان يوشع يسير في موكبه مختالاً يتفقد الجموع ويشرف على البناء ويرى ما تم إنجازه، فإذا ما رأى تلكؤًا من الأسرى أمر بجلدهم بالسياط حتى يتابعوا بنشاط، ومَنْ كبا منهم على وجهه أو جثى على ركبتيه لاحقته السياط حتى تقتله، ومن شكا أو تذمر سيق إلى حفرة حيث يُدفن حيًّا.

ومع بزوغ شمس الصباح من كل يوم، كانت صفوف أطفال بني كنعان تتجه تحت الحراسة إلى نهر الأردن وهم يحملون الماء على ظهورهم ونخزات جنود العبريين تلاحقهم، فإذا ما وصلوا أماكن البناء أفرغوا قِرب الماء وعادوا ثانية لملئها، ويظلون على هذا الحال حتى تتوسط الشمس سماء أريحا، فيُقدَّم لهم فتات الخبز المُغمَّس بالماء.

• • • •

قال الأحبار:
- يا جنود الرَّب، انتقوا لنا عشرة أطفال سِمان لخدمتنا أثناء القُدَّاس.

قال الجنود:
- ليكن ما أمر به الأحبار.

غادرت ثلة من الجنود معبد الرَّب لتنفيذ ما قاله الأحبار، وعندما وصلوا إلى "حظائر" الأطفال ترجلوا عن جيادهم وحاولوا الدخول، لكن الحجارة انهالت عليهم مثل المطر، فتراجعوا... حاولوا الدخول ثانيةً، لكن الأطفال كانوا قد تمترسوا جيدًا وملأوا سِلالهم وجيوبهم بالحجارة. ولم يمضِ طويل وقت حتى تراجعت ثلة الجنود مسرعة إلى قصر يوشع لإبلاغه بما يحدث.

كان يوشع يجلس على عرشه يتابع ضربات السوط وهي تنهال على جسد امرأة كنعانية رفضت أن تعمل في قصره، يعدها ثم يقهقه ويبدأ العدَّ من جديد، وإلى جانبه جلست امرأة جميلة تعضُّ شفتيها كلما هوى السوط على جسد المرأة الكنعانية، فإذا ما رأت من الجلاد تهاونًا؛ وقفت على قدميها وانتزعت السوط من يده وتابعت بجنون... يضحك يوشع، يقهقه، ثم يسترسل في حديثٍ مع أحد قواده، بينما ضربات السوط لا تزال تغطي صوتها الرتيب مصحوبًا بالأنين المتقطع.

- أترى ما تفعل الغيرة أيها القائد؟

قال يوشع وهو يبتسم بجذل، ثم تابع:
- الكنعانية جميلة، ولقد خشيتْ زوجتي أن تستأثر بي ذات ليلة فتقود دولة العبريين إلى الهلاك.

ثم تغيرت ملامح وجهه وكشر عن أسنانه الصفراء، وقال:
- وهكذا ترى، إذا كانت امرأة تقتل امرأة أخرى غيرةً؛ فإني أموتُ غيظًا كلما سمعتُ أن سمحون ملك الفلسطينيين لا يزال متربعًا على عرش أورسالم، يحكمها كيفما يشاء، ويسير في طرقاتها ومزارعها دون اكتراث.

هزَّ القائد رأسه علامة الإيجاب، وقال:
- لم يبق من الوقت غير القليل، إن أبناء الرب يطرقون السيوف آناء الليل وأطراف النهار، فإذا ما حان وقت العمل انقضضنا على سمحون مثل الذئاب

فلا يجد له مفرًا غير أن يقع في قبضتنا. وعندها يا سيدي سوف تُشفي غليلك منه بالطريقة التي تعجبك.

قال يوشع:
- آهٍ لو تحقق هذا الأمر، لأصبحتُ ملك هذا العالم الدنيء، ولجعلت العبريين يستخدمونهم دوابًا للركوب ومادةً للعلف والغذاء.

توقفت ضربات السوط، عادت ملكة العبريين إلى مكانها وهي تلهث تعِبة، حدَّق يوشع في الجثة المُلقاة أمامه، ثم تحرَّك إصبعه آمرًا أن تُسحب الجثة إلى الخلاء... أطرق قليلاً، ولم يطل صمته، حتى دخل عليه جنديٌّ مدجَّج يلهث تعبًا...

قال يوشع:
- ما بك أيها الجندي؟

جثا الجندي على ركبتيه وقال:
- سيدي العظيم ملك العبريين وقائدهم، أطفال بني كنعان يهاجموننا بالحجارة ويمنعوننا من تنفيذ أوامر الأحبار.

صرخ يوشع بغيظ:
- أيها الغبى، كيف تسمح لنفسك أن تتحدث بمثل هذا أمام يوشع.

ثم تطلع إلى وجه قائده مكشِّرًا، وقال:
- لسنا بحاجة للأطفال، زيدوا وقت عمل النساء الكنعانيات فنستعيض عنهم.

ثم دار حول نفسه ونظر إلى خاتمه وضحك.

وفي غضون ذلك خرج القائد من الساحة مسرعًا واتجه إلى حصانه واعتلاه.

ترجَّل يوشع عن حصانه وألقى نظرة عجلى على الدخان المتصاعد نحو سماء أريحا وابتسم، ثم سار وجرد سيفه وأخذ ينخس جثث الأطفال الملقاة في الساحة ضاحكًا مبتسمًا.

قال قائده بفخر:
- أترى يا سيدي، لقد قذفناهم بالمنجنيقات أولاً حتى تهدمت البيوت، ثم جاء دور العربات لتقتحم الموقع ونقضي على مَن يحاول النجاة من أطفال بني كنعان، وجمعتْ ثلةٌ من الجنود أكوامًا من الحطب وأشعلت النار في المكان حتى لا تتسرب إلى أنوفنا رائحة الجثث العطنة.

قال يوشع:
- أقدِّم لك شكري أيها القائد، زيدوا عمل نساء بني كنعان ضِعفًا لنعوِّض النقص الذي حدث.

قال قائد آخر:
- ولكنهن يا سيدي يعملن منذ طلوع الشمس حتى مغيبها.

قال يوشع:
- ليكن عملهن إلى ما بعد منتصف الليل.

رفعت جثة ملقاة على طرف الساحة رأسها مستعطفة، صاح يوشع فزعًا:
- أترون، إنهم أحياء أيها الأغبياء، إنهم أحياء.

هجم القائد على الجثة وأشبعها ضربًا بسيفه حتى مزقها قطعة إثر أخرى، وتنفس يوشع ملء رئتيه وقال:
- أعيدوا حساباتكم في المرات القادمة، لا يجب أن تتنفس جثة بعد طعنها.

ثم نظر إلى وجوه قُواده بغضب واعتلى ظهر حصانه متجهًا إلى داخل المدينة.

• • • •

في الطريق لاحت له شوارع أريحا غارقة في الظلمة رغم طلوع النهار وسطوع الشمس... لم يحفل بالتصفيق والهتاف الذي يُلقى على مسامعه، بدا ساهمًا محزونَ النفس كئيبًا، ولم يستطع مرافقوه أن ينبسوا بكلمة خشية انفجار غضبه، وعندما وصل إلى القصر رأى مجموعة من نساء بني كنعان يشذبنَّ حديقته وينقلن الحشائش إلى أمكنة بعيدة، وفي لحظةٍ تحول سكونه إلى انفجارٍ مخيف، ترجل عن حصانه وأخذ سوطه ولحق بهنَّ يكويهن بجنون، ومع كل ضربة سوط كان صراخه يعلو تارةً بالضحك وأخرى بالعويل والصراخ تشفيًا وغيظًا... نظر القُواد إلى وجوه بعضهم نظرات ذات مغزى، ومع متابعة السياط على أجساد الكنعانيات؛ قال قائدٌ:
- أكبر ظني أن لوثة أصابته.

قال قائدٌ آخر:

- اخفض صوتك يا هذا، وإلا استبدل الكنعانيات بك.

عاد يوشع ونظر إلى وجوه قواده بغضب والسوط في يده، ولم يلبث أن انطلق صوته بضحكات مجنونة تخترق ردهات القصر وتصل إلى مسامع الحاشية في داخله.

جاءت ملكة العبريين على عجل تحفُّ بها الزهور وحاملات الزينة، ونظرت إلى وجه يوشع والى قُواده فرأت الدماء تغطي أياديهم ووجوههم وملابسهم.

قالت الملكة:

- هل انتصرتم في مذبحة جديدة؟

نظر إليها يوشع ببلاهة، وهزَّ أحد القواد رأسه بالإيجاب.

قالت الملكة:

- إذن لِمَ كل هذا الغضب وذلك الجنون؟ ادخلوا إلى القصر فإني أمرتُ بإعداد مائدة ضخمة تليق بالمنتصرين.

أعاد يوشع سوطه إلى مكانه وسار نحو القصر ببطء يتبعه قُواده تربع على أريكة ضخمة ونظر إلى آنية الطعام المرصوفة في القاعة مملوءة بالأطايب التي ولدتها أرض أريحا، لكن نفسه ظلَّت على حالها كئيبة، ومع بداية الطعام نهض بعصبية وغادر القاعة مسرعًا: فتبعه قواده، وذهلت الملكة لكنها تماسكت وأمرت باقي المدعوين بالجلوس في أماكنهم ومتابعة الطعام.

سار يوشع في شوارع المدينة على غير هُدى: ثم اتجه إلى وِرش صنع السيوف ليرى ما وصلت إليه.

ومضت ليالٍ أخرى... وأريحا التي هُدمت أسوارها وقُتل أطفالها تنام حزينة في أحضان ذئبٍ مفترس، تنتظر الفارس الكنعاني ملهوفة كانتظار الأرض العطشى لقطرات الماء.

وفي كل ليلة، كان يوشع يجلس إلى شُرفة قصره لينظر إلى بيوت أريحا المرهقة النائمة في ظل الخوف والفزع، وعندما ينتصف الليل يشدُّ قبضته ويلقيها في الهواء متوعدًا صارخًا يستنزل اللعنات على بني كنعان وسيدهم سمحون الملك، ويظلُّ على هذا الحال تأخذه الرجفة والغضب حينًا إلى ارتكاب الجرائم فيستدعي كنعانية للتلذذ بمنظر دمها وهو يسيل على شرفة قصره، ويأخذه

الصراخ أحيانًا أخرى إلى حالة من الفزع والاضطراب لا يفيق منه إلا في الصباح عندما يجد نفسه نائمًا على سريره الحريري يحفُّ به الخدم والقواد.

• • • •

وأريحا كعادتها تظلُّ أرضها عطشى إلى أن يأتيها الغيث... وفي ذلك الصباح، حيث تمدَّد يوشع على سريره الحريري وحوله القواد والخدم، جاءه من ينبئه أن جنودًا بعدد الرمل تقف على التلال المشرفة وتنظر إلى أريحا عن بُعد.

اهتز يوشع من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وارتدى لباسه على عجل صارخًا بقواده أن يتبعوه. ونفخ في (قرن الثور) ذلك النهار، فاجتمع القواد على عجل في لقاء سريع انفضوا بعدها كلٌّ إلى جنده ليضعهم في حالة استعداد لمجابهة الخطر ، وبقيت عند يوشع تلك الصفوة من القواد الذين ينفذون ما يأمر به حال الإشارة ودون كلمة منه.

قال يوشع:

- ها قد استعد سمحون قبلنا وعزم على تخليص أريحا من بين أيادينا، فبماذا تشيرون؟

قال أحدهم:

- نأخذهم في الليل على غفلة، نزحف إليهم دون صوت أو ضوء فنفاجئهم ونشتت شملهم ونلحق بهم إلى أورسالم حيث نهدمها على رؤوسهم.

وقال آخر:

- بل نملأ سهل أريحا كمائن نفاجئهم بها عندما يهجمون فنبيدهم عن أخرهم.

قال ثالث:

- بل نحصِّن أنفسنا داخل الأسوار التي بنيناها منيعة فإذا ما جاءوا وجدوا صعوبة في فتحها فيعودون من حيث أتوا.

وقال رابع:

- سيدي يوشع العظيم، إنها آراء جبانة، فليكن رأيك هو الرأي الشجاع.

نظر يوشع من شق خيمته إلى الفضاء، ودار برأسه حول تلال أريحا فرأى خيول

سمحون وجنده تقف على التلال مثل الأشجار لا تعبأ بالريح.

قال يوشع:

- فليكن سهل أريحا لقاؤنا بهم، ولتضعوا الكمائن في السهل ليلاً حتى إذا ما تحرك إلينا فاجأته النبال فعاد من حيث أتى.

قال الجميع بصوت واحد:

- أوامرك إرادة الرب أيها القائد

ثم انصرفوا كلٌّ إلى عمله، ولم يبق غير مقرب من القادة إلى جانب يوشع.

مضى النهار قلقًا كئيبًا، الجند في حركة دائمة، أطفال العبريين يقبعون داخل بيوتهم ويُمنعون من مغادرتها، الكل يترقب ما يأتي به الغيب. وعندما جُنَّ الليل، رأى يوشع وجنده آلاف المشاعل تطوِّق تلال أريحا فكأنما سطعت الشمس على جهة من أريحا دون الأخرى.

أخذ يوشع وقواده يجولون بنظرهم إلى التلال فأصابهم الرعب وحفَّتْ بهم الدهشة، وعندما سمعوا طبول بني كنعان تأتي إليهم غائرة في سكون الليل؛ أخذت أعصابهم تهتز، ويصرخ يوشع ملقيًا أوامره جُزافًا ليقوم القواد بتنفيذها.

ثم جاء الأحبار إليه يحملون أسفارهم، فقال يوشع:

- أشيروا عليَّ أيها الأحبار.

قال كبيرهم:

- النصر لنا، خذوهم غيلة، فإن الرَّب وعدنا أن نطأ أرض أورسالم تكلِّل هامات جنودنا أكاليل النصر وزغاريد نساء العبريين.

لكن يوشع ظلَّ على قلقه، فقال حِبرٌ آخر:

- ننتظر قدومهم إلينا فنسير في موكب الأسفار في المقدمة، فإن شعرنا هزيمة افتديناكم بأنفسنا، وإذا واتانا النصر سنكون أول من يفتح بوابات أورسالم لاستقبال جيوش العبريين.

قال يوشع:

- نِعم الرأي، وليكن أحبارنا وقودنا كي يستنهض همم العبريين فلا يتراخون في مقاتلة الأعداء.

ترجَّل المنادي عن حماره ودخل أزقة أريحا معلنًا أن مفاجأة يعدها يوشع لبنى قومه، وأن عليهم أن يلتقوا في الساحة كي يعلنها عليهم فتدخل الفرحة إلى قلب كل عبري في المدينة.

تدافع العبريون من كل صوب والقلق يرسم على وجوههم صورًا من الآثام لم يعهدوها في أنفسهم من قبل، تزاحموا حتى لم يعد من موضع في الساحة، جاءت النسوة وعلى صدورهن أطفالهن، وترك الحرفيون أعمالهم واتجهوا بلهفة نحو المكان، الشيوخ والعجائز والأطفال وكل قادر على المشي جاء.

وفي رُكنٍ آخر من المدينة، كانت هنالك آلاف النساء من بني كنعان يجلسنَّ القرفصاءَ في أماكن ضيقة حُشرنَّ بها تمهيدًا لاكتمال المفاجأة التي أعلنها يوشع، فمنذ الأمس، وجند يوشع يطوفون بالمدينة يجمعون النساء الكنعانيات من البيوت والمزارع ويلقون بهن في أمكنة قذرة تتجمع فيها القمامة، كلهم كانوا يتساءلون: ماذا يُراد بالكنعانيات، لكن أحدًا لم يستطع الإجابة، غير أن الكنعانيات وحدهن كُنَّ يعرفن هذا السر، فمنذ احتلال أريحا جرت آلاف المذابح على نفس الطريقه، ولكنها اليوم مذبحة جماعية.

قالت إحدى الكنعانيات:

- أرجو أن يصل سمحون إلى أريحا قبل أن يفتك بنا يوشع.

قالت أخرى:

- سيأتي، بالأمس رأيت مشاعلهم مغروسة على الجبال مثل الصقور.
- أخشى أن يبطئوا فتقع الكارثة.
- لن تكون هناك كارثة يا أختاه، قلبي يحدثني أن الشرَّ مردودٌ على صاحبه.

وعلى منصة في الساحة وقف يوشع وهزَّ يده في الهواء مراتٍ، فصمت كل العبريين، قال يوشع:

- لن أحدثكم طويلاً فليس هناك وقت للحديث، سمحون يقف بجيوشه على مقربة من أريحا، لكنه لن ينفذ إليها، في يدنا رهائن أغلى من الذهب، إن عاد سنبقيهن في عِداد الأحياء، وإن لم يعد فما زالت أرض أريحا مستعدة لاستقبال الجثث.

جرت في الجو همهمة، ثم ارتفع الحديث حتى صار صراخًا:

- اقتلوهن فلسنا بحاجة إليهن.

- من يخدمنا أيها الناس؟
- نعتمد على أنفسنا ولا نلوث بيوتنا ومزارعنا بهذه القاذورات.
- الموت للكنعانيات.
- الموت لسمحون وجيشه.
اعتلى أحدهم كتف آخر وصرخ :
- فليقل يوشع فيهن كلمته، دعونا نستمع.

وشيئًا فشيئًا هدأت الساحة.

قال يوشع:
- قد أرسلنا إلى سمحون رسولاً صباح اليوم، إن أُضيئت مشاعله الليله؛ أُضيئت مشاعلنا على جثث الكنعانيات، وإن عاد.....

قاطعه صوت من الساحة:
- فلتضاء مشاعلنا أيها القائد.

قال يوشع:
- وإن عاد أبقينا عليهن في خدمتنا.

• • • •

عندما اقترب المساء زحف العبريون إلى أطراف المدينة ينظرون إلى الجبال بهلع، كانت أطرافهم ترتعد وعيونهم مشدودة إلى القمم، تابعوا نزول الشمس وهي تختبئ بحذر وتدفئ نفسها على مبعدة من السماء، وعندما غابت تمامًا شدت أعصابهم وتتابعت أنفاسهم، لكنهم بعد لأي عادوا دون نظام عندما قرعت طبول سمحون فجأة وارتفعت المشاعل إلى عنان السماء لتضيء جزءًا من أريحا ولتبدِّد الظلمة المنشورة في أزقتها

في غضون الزمن اليسير الذي تلا ذلك تدافع العبريون وفي أياديهم العصي والسيوف والخناجر، وبعد أن هتفوا ليوشع والأحبار ورب العبريين استلوا ما بأياديهم وتوجهوا نحو "زرائب" الكنعانيات ، وما أن همُّوا بطلائعهن حتى ارتعدت الأرض تحت وقع طبول سمحون وجيشه، أضاءت مشاعله كل أريحا،

وطاف بالناس طائفٌ ينادي: يا أيها الناس، سمحون يترك الجبال متجهًا اليكم فاستعدوا.

وهكذا عاد العبريون إلى مساكنهم وتركوا مهمة ذبح الكنعانيات إلى جنود يوشع الشجعان.

سـمـحون المقاتل

عبر الشروق الذي نما على جبينه رأى آلاف السيوف تمتشق استعدادًا للموت، أصاخ السمع فوصل إليه دبيب الخيول مثل طبول لا تتوقف، دار حول نفسه في ردهات القصر وتنقل من نافذة إلى أخرى كي يرى الغيث قادمًا من طرقات أورسالم وبيوتها الطينية، وقبل أن تمتص زهور الحديقة أول قطرة من الندى تنفس غبارًا يعرفه جيدًا فابتسم جذلاً وتنهد، ثم قادته خطواته مسرعة إلى مقصورة حورا، لكنها كانت خالية لا وجود للحياة فيها، أدرك أن الغبار الذي يحمله الريح إليه قد لامس ثوبها قبل أن يصله، عاد فابتسم ثانيةً.

عن بُعدٍ شاهد حصانها الأبيض يتمخطر في مشيته مثل الضباب ورأى جسدها يلتصق بظهر الحصان مثل الفرح وفي يُمناها سيفها الذي أصبح زادها بعد أن غدت حورا شكيم.

قال لنفسه: إنه الحب، وقال بصوتٍ عالٍ: بل إنها الحياة، وصرخ: بل هي الحرية.

عاجلته ذكرى أمها فمدَّ نظره عبر الأفق الذي أخذ يتفتح فوق البيوت البعيدة، قال له شكيم قبل أن يرحل: الآن تزرع أورسالم زيتونها وتروي أرضها وتزوج بناتها دون خوف.

والآن تموج حورا بين الجموع شاهرة سيفها تجلس بخيلاء على سرج حصانها وتنهب الأرض باتجاه أريحا.

تذكر أنه يعيش في قصرٍ لم يشاهد مرةً روعة بنائه وفخامة أعمدته، وامتدت إليه الذكرى يوم كان القصر عامرًا بالقواد الذين يعلقون على صدورهم أوسمة الجماجم والسيوف، فأدرك أن جزءًا من حياته قد ضاع هدرًا، وهاله ما كانوا عليه من تهاون في حماية مملكة بني كنعان حتى سلخت أريحا من مملكته كما يسلخ جلد الشاة عن لحمها.

وتنقلت به الذكرى سريعًا إلى قصورهم المقببة الفارهة المرصوفة على تلال مدينة أورسالم الممجدة، ومرَّ من أمام ناظريه شكيم وهو يغرف الذهب بيديه من خوابيهم ويُلقي به في أكياس كبيرة ثم يعطيها للفقراء، فيحفظونها في حدقة العين لتُلقى في خزائن سمحون الملك.

وشكيم... آه يا شكيم، لو أن بصيصًا من الامل يوحي بقدومك لأجلت المعركة حتى تطرق سيوف النحاس وتمتشق في وجه يوشع وتلقي به إلى الصحراء ثانية، لكنك حملت الكنوز التي غرفتها بيديك يومًا ولم تعد.

تحركت ستائر القصر فاهتز قلبه، ستكون أياما عصيبة، وربما امتدت إلى شهور طويلة.

تحسَّس عدته الحربية وتفقد سيفه وترسه، تنقلت خطواته بطيئة في ردهات القصر وأصاخ السمع فوصلته الأصوات أوضح من قبل، أصبح الطنين صراخًا لا يميز كلماته، ضحك بصوت مرتفع وأسرعت خطواته نحو حصانه واعتلاه، ووقف أمام القصر ينتظر الجموع الزاحفة.

ومن خلف جدار القصر برز له صوتٌ غاب عنه طويلاً:

- أيها الملك العظيم، هذا يومك.
- لكأني أعرف هذا الصوت جيدًا.
- تعرفه ولا شكٍ، أنا هو شاحور الذي يجوب الطرقات ليلاً، يدعو لمجد سمحون المقاتل.
- شاحور بن سرجون، أيها الرجل الذي علَّمني العزيمة كما علَّمني شكيم حُب التراب.
- أيها الملك العظيم، إن سقط السيف من يدك فابحث عن غيره ولا تخلد إلى الراحة، تعلم أن تنجح.
- الأعوام كانت تقول لي إن الحكمة تخرج من أفواه القواد والعظماء، لكنها اليوم تقول إن الفقراء هم مصدر الحكمة.
- صدِّقها أيها الملك، فقراء أورسالم يزحفون اليوم إلى قصرك كلٌّ يحمل بيته الصغير على راحته.
- هل ستبقى في أرض أورسالم تباركها حتى نعود؟
- وهل ينجح القواد إذا ما أداروا المعركة من خلف الجنود؟

أطلَّ وجه شاحور على الملك، كان يمتطي حصانًا بدا في غبش الفجر كأنه قطعة من الضباب.

فتح سمحون فمه دهشةً، فقال شاحور:

- قد سبقتهم إليك لأراك قبل أن أفتقد وجهك.

- لكننا معًا منذ الآن.

- من يعرف ما تأتي به الأقدار... من يعرف؟

صمت الملك وصمت شاحور، كانت كلمات الجند قد أصبحت تسمع عن قُرب، اهتز حصان شاحور وولَّى وجهه شطر المدينة.

- أعود الآن إلى حورا كما يعود يوشع إلى الصحراء ثانيةً.

ثم لكز حصانه وولَّى.

مدَّ الملك نظره عبر غبش الفجر فوصلته طلائع الجيش، وأمام روعة اللقاء لم يجد من كلمات غير الدموع، لقد زحفت أورسالم بكل بيوتها إليه، رأى كراديس الجنود مرتبة مترامية لا يصل إليها نظره، وعن بُعدٍ كانت كتيبة النساء تلوح بالسيوف للملك تأييدًا وافتخارًا، وفي مكانٍ آخر يحمل فوجٌ عظيمٌ من النساء جِرار الماء الفخارية والقِرب الجلدية وأهازيجهن تصل إلى مسامعه بقوة، جِمالٌ تحمل الزاد على ظهورها مرتَّبة في صفوف لا تصل العين إلى نهايتها، عيونٌ تحدِّق في الأُفق نحو أريحا مصحوبة بعزم لا يلين وإرادة لا تُقهر.

دار حصانه حول نفسه عدة مرات ثم رفع يده للجمع فصمتوا كأن على رؤوسهم الطير، ثم أنزل يده بقوة مُعطيًا شارة المسير وحاذى حورا في سيرها، فقرعت الطبول وغنَّت النساء وارتفع الهتاف وتعالى الغبار.

- قد فعلتِ ما كنتُ أتمنى يا حورا

- بقوة سمحون العظيم نفعل، وبإرادته نقاتل.

- أورسالم خلفي، وأريحا أمامي، الفقراء هم الذين يقاتلون.

- هم الزاد يا سمحون العظيم، وهم قمح الأرض

سارا صامتين تصلهما ضجة عظيمة، حانت منها التفاتة فرأت شاحور على بُعدٍ قليلٍ منها وقد تمنطق بسيفه وعيناه تجوبان الفيافي كصقر يبحث عن فريسته، ابتسمتْ.

قال الملك:

- إذا ما واصلنا سنصل قبل غروب الشمس.
- سندقُّ خيامنا ونضيء مشاعلنا ونقرع طبولنا فوق الجبال.
- هلا راقبتِ مؤخرة الجيش يا حورا؟
- لا تخف أيها الملك، الأنباء تصلني عن وضع آخر جندي في جموع الجيش.
- لكِ نفسي يا ابنتي.

سرح نظره عبر الفضاء المترامي، وتاهت نظراتها كأنما تبحث عن شيءٍ ما.

التقت عيناها بعينى شاحور أكثر من مرة، لكنها لم تنتبه إلى وجوده، ابتسم عن أسنانه المهترئة وهزَّ رأسه مراتٍ عديدة.

قال الملك فجأة:
- لتسرع خطواتنا نحو أريحا.

لوت حورا عنان فرسها وسرت كالنسيم بين الجيش وغابت تبلِّغ رسالة الملك إلى قواد الكتائب.

ازدادت قرعات الطبول، وأسرعت الأرجل تطوي صخور الجبال مشتاقة لرؤية النخيل الذي يضمخ وجه أريحا بالحزن والفرح، وسار الجيش مسوقًا برغبة جامحة للوصول قبل المغيب، وعندما أعلن الملك عن راحة يمضيها الجيش بين الوهاد قبل استئناف الرحلة، ابتلع كل جندي طعامه عجلاً وهبَّ على حصانه واقفًا ينتظر أمر سمحون بالمسير.

عند غروب الشمس لاحت أريحا مثل عروس ترتدي ثوبًا أسود اللون، هتف الجنود بصوتٍ كالرعد حتى خال كل منهم أن صوته اخترق أبنية أريحا، ثم أُضيئت المشاعل فوق رؤوس الجبال ونُصبت الخيام وقرعت الطبول فرحًا وإيذانًا بالوصول.

قال سمحون:
- أخال أنهم يسمعوننا يا حورا، لكأني أرى نساء بني كنعان ينظرنَّ إلينا من خلال الأسر ضارعات أن نتقدم.
- مهلاً أيها الملك، الجند متعبون وهم بحاجة لبعض الراحة، فلنعسكر هنا لبعض الوقت.

فى خيمة سمحون ، كان القادة يتبادلون المشورة حول أنجع الطرق التي يسلكونها لفتح أريحا وتخليص نسائها من أسر العبريين.

ترامى إلى مسمعيها الهمس خارج خيمتها ، فحدَّقتْ في العتمة ، ماست على شفتيها ابتسامة حزينة ، فلوت عنان أفكارها نحوه ، (قد يذرع الأرض جيئةً وذهابًا ويموج في رمل الصحراء ويتمطى ظهر الغيب، لكنه سيعود).

ثم هدهد وجهها النسيم من خلال شق الخيمة فتراخت عيناها وحملتها الأكف هدية لتقدم لشكيم فلاح حبرون الذكي، مدَّ إليها يده وانتزعها من وحدتها وسارا على شواطئ البحر الميت ينعمان بنسيم الصبح قبل أن ترفع الشمس قامتها ويبدأ قيظ أريحا وحرارتها.

قالت له: إني أحبك، وقال لها: إني أحبك، تعانقا...

- هل تذكرين ؟ كانت أيامنا مطرَّزة بالزهور والحِنَّاء في أزقة أورسالم العتيقة ، عندما كنتِ تبكين فرحًا؛ ألملم دمعاتك مثل الحنون وأزرعها على شعر صدري ، فتزغرد الصبايا وترقص أعمدة المدينة وحجارتها طربًا ولذة.
- أذكره ولا أنساه، لكنك وعدتَ أن تعود.
- ها أنا ذا بين يديكِ.
- أنت وهمٌ أحاول الإمساك بك فتهرب مني.
- من قال هذا ؟ قُروح جسدي التي تملؤها الرمال تصرخ إني أحبك ، وحبَّات العرق التي تسقي عطاش بني كنعان تساقط مثل البرد لتلوِّن وجه مدينتنا بالفرح.

ضمَّتُه إلى صدرها بقوه فانزلق من بين ذراعيها موليًا وجهه شطر أريحا... تقدَّم مسرعا... نادت عليه طويلاً، لكن خطواته كانت مثل سرعة الريح لا تأبه لشيء.

صرخت وصرخت، وردَّد السهل الواسع صرختها، ثم انكفأت على وجهها، فجاء إليها ومسح الرمال عن خدودها وابتسم، ولم يلبث سيفٌ أن انغرس في ظهره، فصرخ.

صرخت واستغاثت، حدَّقت في الخيمة بعينين زجاجتين، وصلتها الأصوات والحركة فتنهدت بعمق ونهضت، نظرت من شق الخيمة فرأت الحُرَّاس يفركون عيونهم بتثاقل، النيران التي اشتعلت تحولت إلى رماد تذروه ريح الصباح... امتطت ظهر

حصانها وتجولت بين جنود بني كنعان ، حيوها جميعًا بابتسامة مشرقة عندما كانت تمرُّ بهم ، وعندما ارتفعت قامة الشمس ومدت خيوطها الذهبية إلى ظهر الجبل رأت سمحون عن بُعد يمتطي حصانه ويسير أولى خطوات الرحلة.

-ومضت ليلة أخرى... وسمحون الذي يسوس بني كنعان ويحميهم يطالع في النجم صورته ولا تغفل عينه عن الترقب لحظة ، وقبل أن ترتفع يد سمحون إلى الهواء معلنًا بدء الزحف ؛ لاح له عن بُعدٍ مَنْ يحمل علمًا أبيض اللون ، فأنزل يده ببطء وتنهد.

- لعلَّه رسولٌ من الغُزاة العبريين.

- أو ربما كان من بني كنعان فينبؤنا بما لديه.

- معلوماتنا تؤكد أن العبريين أبادوا كل الرجال.

- لعلَّها امرأة.

- لا أظن ذلك.

عند ارتفاع قامة الشمس وصل إلى المعسكر في أعلى قمة الجبل رجلٌ يلهث ، فاقتادوه إلى سمحون الملك...

- من أنت أيها الرجل ؟

- أنا رسول يوشع إليك.

- ماذا يريد يوشع منا وهو غازٍ لديارنا ؟

- يقول يوشع : تذكَّر نساء بني كنعان ، وإلا...

قاطعه الملك بحدة :

- خذوه من هنا ، وليُحجز لديكم حتى يرى سيده مقيدًا على أبواب أريحا.

تناوشته الأيدي فاقتادوه إلى حيث أمر الملك.

قال الملك لكبير قواده :

- فليُعامل بالحسنى ، إنه رسول فقط ، ومن أخلاقنا أن نحترم الرُّسل.

قال كبير القواد :

- لتكن إرادتك ، لقد ضاع من النهار نصفه ، فلنؤجل هجومنا إلى صباح الغد.

قالت حورا :

- وليكن نصب أعيننا فتيات بني كنعان.

عندما قدم الليل؛ أُضيئت المشاعل، وتحولت سماء أريحا إلى جوٍّ ملتهبٍ من الدخان والأضواء.

أمضى الجنود جزءًا من الليل يتحدثون عن قُرب انتهاء الكابوس الذي ينام على صدر أريحا... وعند الصبح هرع الجنود إلى سهل أريحا مثل المطر، كانت السيوف في أياديهم مشرعة، وجيادهم ينساب منها العرق فتصهلُ وتدقُّ الأرض بأقدامها بقوة.

ووسط الصراخ الذي علا عند الصدام بطلائع العبريين قال جنديٌّ بصوتٍ مرتفع:
- شكيم يقاتل معنا، أقسم أنني رأيته.

• • • •

شكيـــم المُقاتـل

بدأ الهبوب خفيفًا في البداية، ثم تكاثر حوله فلم يعد يميز إلى أي اتجاه ينظر، خانته قدماه فأنحنى، ثم سقط كنخلةٍ هوتْ بعد أن قُصَّ ساقها فجأة.

همستْ له رياح الصحراء: إني أحرسُك، وقال له هبوب الغبار: تجمَّل بالصبر فالغروب على بُعد قليل منك... وعبر الضباب الذي تكاثف في عينيه نزعته يدٌّ قوية، فوقف على قدميه، حدَّق في العتمة، لكنه لم يرَ شيئًا.

عَبْرَ قطرات الماء التي كانت تنساب إلى حلقه؛ شعر بثُقلٍ في جفنيه، فاستسلم لنومٍ مريح... وصله الصوت ضعيفًا متقطعًا:
- لمً يزل حيًّا... إنه يتنفس... قطرات أخرى فقط ثم يفيق.

عاجله طنين الصحراء مخترِقًا أُذنيه فأحسَّ بقُرب انفجار رأسه، تناثرت على وجهه أمارات الحزن مثل الغيوم فانكفأ على وجهه يهذي حينًا ويصرخ أحيانًا، تماوجت في عينيه ملايين ذرات الرمال الحارة، بكى طويلاً، لكن صوته لم يتجاوز حنجرته، اعترته الآلام في جسده فبدا كُتلةً من الوجع المتواصل، صرخ بملء فيه:
- يا شعب بني كنعان، خذني إليك، ضمني إلى صدرك وظللني بجناحيك.

لكن صوته ظلَّ عميقًا كمن يصرخ في بئرٍ ليس لها من قرار... جاءته حورا وأمه ونساء بني كنعان يحملنَّ جِرار الماء البارد، فعبَّ منه حتى ارتوى، مسح فمه بأطراف كُمِّه وقفز إلى حصانه مسرعًا واتجه نحو الضوء الذي ينبع من أزقة أورسالم العتيقة، تحسست أمه جبينه براحتها، فابتسم...

- أهذا أنت يا ولدي؟ كل أطفال المدينة افتقدوك في يوم عيدهم، حملوا إليَّ أوعية العسل وطلبوا مني أن أتذوقه لكني لم أفعل، انتظرتك حتى تعود.

اتجه إليها رافعًا راحتيه، ضارعًا إليها أن تحمله على صدرها كما كانت تفعل لمَّا كان صغيراً، لكنها زجرته بقوة:
- إن لم تنهض وحيدًا فلستَ مني، ولا منك أنا.

انسابت إلى حلقه القطرات، ابتسم، عاجلته يدٌّ لتضع على جبينه ماءً باردًا، فتح عينيه فرأى حُلة حربية تقف قبالته مرسومٌ على صدر صاحبها وجه سمحون الملك، ارتعش، عاد للنوم ثانيةً.

- سمحون ، أيها الملك العظيم الذي يمتزج جلدك الملكي بفقراء المدينه ، هلا رفعت إليَّ راحتيك مرِّحِبًا.

قالت له كل الرمال : لا تخف ، سمحون لن ينساك يا ولدي ، وقال له نخيل الصحراء في النجوع ، إني على بُعدٍ يسيرٍ منك ، لو واصلت قليلاً لطوَّقتك أغصاني وزرعتُك نخلةً يمرُّ بها السابلة فتعطيهم من الرطب ما يخفِّف عنهم مشاق الرحلة.

أفاق من نومه وأصغى ، كان هبوب الريح يحمل إليه أصواتًا غريبة ، فيرتجف جسده... رفع رأسه عن الرمال قليلاً ، حدَّق في قماش الخيمة المصنوع من وبر الجمال وابتسم : إذن فهي الحقيقة أنهم هنا إلى جانبي... جالت عيناه في المكان فرأى حُللاً حربيةً معلقةً على أطراف الخيمة ، ثم تنقلت عيناه إلى أرض الخيمة فرآهم يفترشون الأرض قد أضناهم تعب الرحلة فراحوا في سبات عميق.

جاءه الطنين ثانيةً ، لكنه كان خفيفًا ، وعندما أفاق ؛ مدَّ رأسه من شق الخيمة ونظر إلى نجوم الصبح فألفاها ضاحكةً تستعجل نهوضه ، فصرخ.

قال له صوتٌ بعد أن هرع إليه:

- لا تخف يا شكيم، نحن رُسل سمحون إليك ، وليذهب الموت إلى الجحيم.

وقال له صوتٌ آخر:

- حورا تنتظرك فلا تحزن، لقد تعلمتْ لعبة السيف فغدتْ تزين به حُلتها دون الذهب، فعُدْ إليها.

وقال ثالث:

- بيوت أورسالم العتيقة هتفتْ لك ثلاثًا قبل أن نأتي إليك ، ليذهب الذهب إلى الجحيم.

حدَّق في وجوههم ، هرع إليهم واحتضنهم بقوة ، ثم تتابعت من فمه مئات الأسئلة.

• • • •

عَبْرَ خطوات الجمال التي كانت تنساب فوق الرمال عائدة إلى أرض بني كنعان؛ روى الحرس ما كان من أمر قافلة الذهب، جدُّوا في البحث ليومين كاملين لكنهم لم يعثروا على أثر، لكأن رمال الصحراء قد فتحت شقوقًا ودفنتهم جميعًا دون أن تُبقي ما يدل على وجودهم.

ومع الحزن الذي كان ينساب على وجهه مثل جدول الماء كان يشكر سمحون ويثني عليه.

- وحورا، أهي على عهد بني كنعان تمتزج فيهم كما يمتزج الطفل بأمه؟
- قد أصبحت حورا روح بني كنعان بعد غيابك، تطرق السيوف وتجول في الليل بين الأزقة تتفقد القوم وما يفعلون.
- ليتني كنت فيهم.
- لكنك ستعود ، أيام وتخطو فوق أزقة المدينة فرحًا كطفل تعوَّد المشي من جديد.

• • • •

عاجلهم مغيب الشمس بعد أن دخلوا أرض بني كنعان، وظلوا على سيرهم حتى داهمهم التعب فأناخوا جمالهم ونصبوا خيمتهم ولجأوا إليها، وما لبث الليل أن طوى جفونهم، إلا شكيم.

- آه أيها الليل الساكن، يفور في دمي شوقٌ إليها، ولولا هؤلاء الأصحاب لغذذت سيري واحتضنتها حتى يلتصق جسدي بها ولا تفصله عنها إلا إرادة "سيفاح" إله الموت والظلام.

• • • •

لاحت له حبرون عن بُعدٍ حزينة ، مدينة تظللها عناقيد العنب وجِرار الخمر والعقود الحجرية.

طوى ذاكرته ثم فردها على وسعها فرأى نفسه صبيًا يعدو في بستان أبيه الزيتوني يلتقط الحصى ويصطاد الطيور فلا ترتجف يده، وفي أيام الحصاد يلاحق مناجل الفلاحين وهي تقصف السنابل غير آبهة بالقيظ والشمس المتوهجه ، وعندما يتعب يتظلل قليلاً ويضع رجليه في قناة الماء ثم يلتقط الحصى يلقيه فينثر الرذاذ

ليسقي الزهور البرية المنثورة على حواف الماء حِزمًا من الخمائل المنسوجة في سجادة رائعة الجمال.

يعود فيطوي ذاكرته، تلامس يده وجه حورا النقي فينهض من جلسته الظليلة عجلاً مقسمًا بقومه أن لا يتوقف حتى تلامس وجهه نسائم أورسالم الطرية، ويغذ إليها الخُطى عجلاً.

أطلَّ شكيم من على رأس الجبل فألفى أورسالم مدينة الحب نائمة بين أحضان الزيتون فاردة ذراعيها له مرحِّبة بقدومه، ركع على رجليه وبكى، دارت عيناه إلى قصر سمحون الملك فرآه يفرد جسده على حُلة من الضباب الصباحي الرطب، ثم أدار رأسه علَّه يحدِّد بيته الصغير، فلم يستطع.

أشاروا عليه بالنهوض، فوقف على قدميه، لم ينبس بكلمة، لكأنما تجمعت كل سيوف العالم وحِرابه لتُغرس في ظهره دون أن تندَّ عنه آهة أو صرخة.

- يا أورسالم العظيمة، أيتها النائمة الممجدة، خذينى إليك عاريًا من كل ثيابي وألقِ بي في وهدة النور ملتصقًا بترابك العسلي وزهورك النديَّة.
- يا سمحون العظيم، أيها الملك الذي يحب الفقراء، ها قد أتيتُ إليك عاريًا بعد أن كسوتني، ومهزومًا بعد أن كنتُ في قمة الانتصار، فلا تخذلني ومد إليَّ يدك.
- حورا، أيتها الحبيبة الضائعة بين السيوف والحِراب، ذريني أقبِّل وجهك الممزوج بالفرح كيما أعود كما كنتُ شكيم الذي تحلمين أن يصبح يومًا طفلَ كنعان الحكيم.
- أيها الرجل الذي مسَّدني بالزيت يوم ولادتي، أيتها المرأة التي غمرتْ جسدي بالعسل في معبد الإله سارح عندما كنتُ أحبو، هلا ناديتما عليَّ فأركع عند أقدامكما أطلب البركة.

توقف، أحسَّ بأن المدينة نائمة نومةً أبدية، لا حركة ولا صوت، لكأنما تحولت إلى مرتع للأشباح، نظر إلى وجوه أصحابه فرآها ممتقعة مستغربة... وعندما وصل إلى بوابة السور الرئيسية وجدها مغلقة بإحكام، فصرخ بأعلى صوته.

أطلَّ عليه من فوق السور رجلٌ عجوز، مدَّ لحيته البيضاء أولاً ثم دارت عيناه عليهم بحذرٍ وريبة.

- شكيم، أيها الولد الطيب، دعني أساعدك.

ظلَّتْ البوابة مغلقة لبعض الوقت ، ثم فُتح جانبٌ منها فعبره شكيم بمشقة ، وتبعه أصحابه.

- أين هم الكنعانيون أيها الطيب؟

رحل العجوز بنظره عبر الفضاء المترامي، ثم نظر إلى السماء:
- لقد ذهبوا قبل أيام ، إنهم في الطريق إلى أريحا.

صرخ شكيم بأعلى صوته:
- أريحا؟ أيها العظيم سمحون، سيكون النصر حليفك.

هرع إلى بيته فألفاه مغلقًا، توجه نحو قصر سمحون فأُصيب بالخيبة.

قالت له عجوز في شوارع المدينة:
- من أنت؟

وعندما كشف عن صدره وحدَّق في عينيها؛ بكت.

طار شكيم كالنسيم، كان سيفه زاده في الرحلة، وبرفقته رُسل سمحون إليه.

فاجأه الغروب على بُعدٍ قليل من جبال أريحا، عزم على أن يواصل، لكن رفاقه أثنوه عن عزمه واستبقوه حتى تضحك الشمس في الصباح.

أمضى شكيم ليلته غارقًا في لُجَّة من الفكر لا يهدأ له بال ، كانت خطواته في النهار بطيئة متثاقلة، فعطش الصحراء وجوعها لم يزل يرسم على وجهه ألمًا عجز عن إخفائه ، لكنه كان يصمم على الوصول مع كل خطوة يدقها فوق الصخور عندما يعجز حصانه عن السير عبر الوهاد.

قال له رفاقه أكثر من مرة: إن الغد يومٌ آخر، فخذ قسطًا من الراحة وإلا خانتك قوتك ، حاول أن ينام ، لكن وجه حورا كان يفاجئه مع كل إغماضة جفن وكل حركة.

وعندما أعلن الصبح قدومه من خلال الضباب المنتشر على قمم الجبال صاح بأعلى صوته، فهبَّ رفاقه واقفين.

وصلت إلى مسمعيه قرعات الطبول فاهتزَّ جسمه ، ضحك بأعلى صوته ولكز حصانه بقوة، رقص قلبه فرحًا عندما كانت أصوات الطبول تقترب من أذنيه بقوه ، صرخ بملء فيه:

- أين أجدك أيها العظيم في هذا البحر المتلاطم؟

أجابته ريح الصباح: إن واصلتَ السير فهو على بُعدٍ يسيرٍ منك.

صرخ ثانيةً بصوتٍ متوحش:

- أين أنتِ يا حورا؟ وما حال سيوف بني كنعان؟

أجابته الوديان: إن حورا تتمنطق بالسيف وتعتلي حصانها وتخترق الصفوف مثل الغمام فاشدد أزرها.

قال هامسًا لنفسه:

- أين أنت يا شكيم؟ وما مكانك في المعركة؟

تحسَّس سيفه، ثم مسح بكفه على رقبة حصانه، حانت منه التفاتة إلى الخلف، فرأى رفاقه يسابقون الريح خلفه كي يصلوا إليه، فزاد من سرعته.

أطلَّت على وجهه جبال أريحا فتنفس طويلاً ، غير أنه أُصيب بخيبة أمل عندما لم ير أثرًا لأحد.

نزل عن حصانه وتفقد النيران الخامدة وآثار الخيام التي كانت منصوبة... أصغى ، فوصلته أصوات الطبول بعيدة، فاعتلى حصانه ثانيةً وأطلَّ من فوق الجبال إلى سهل أريحا النظيف.

صرخ بأعلى صوته:

- يا رفاق الرحلة، سمحون العظيم يقاتِل، فهيا.

انطلق بحصانه يعدو ويقفز من فوق الصخور، وعندما وصل إلى مؤخرة الجيش تابع مخترقًا صفوفه.

صرخ جندي كنعاني:

- يا بني كنعان، شكيم يقاتل معنا، أقسم أنني رأيته.

دار رأسه باحثًا بين الصفوف، وعن بُعدٍ رأى حورا تضرب يمينًا ويسارًا، وسيفها يقطر دمًا... اتجه إليها بكل قوته، وعندما اصطدمت عيناها بعينيه؛ صرخت، وسقط السيف من يدها، فحماها بجسده.

- حورا، التقطي سيفك وقاتلي.

هوت إلى جسده السيوف ، لكن عدته الحربية كانت منيعة... التقطت حورا سيفها وشرعت تقاتل إلى جانبه.

فتــاة بني كنعان

مثل مُهرة فزِعة ؛ هرعت إلى مشجب مقصورتها وارتدت عدتها الحربية ، ثم وقفت أمام المرآة تتفحص جسدها بعد أن اكتسى بحُلة من الزرد الثقيل، وعلى يمينها سيف لمعته تجرح العين التي تحدِّق فيه.

- أواه يا شكيم، لك عندي أن أنقش رحلتك على مسلة من الحجر المرمري في وسط أريحا لتخليد أيامك في الصحراء.

ابتسمتْ بعد أن اكتسى وجهها بالحزن:

- لا تأتِ إليَّ في مثل هذه الساعة، أريد أن أكون قوية بما فيه الكفاية.

دارت حول نفسها مراتٍ ومرات، رأت وجه سمحون في المرآة مرسومٌ على صدرها المجدول بالزرد ، فمسحت بيدها على وجهه ، واتسعت ابتسامتها حتى غطَّتْ أروقة القصر وردهاته.

- لكَ نفسي يا أبي، سوف تصحو من نومك عمَّا قليل لترى الفقراء وقد زحفوا إلى قصرك وفي يد كل واحد منهم عهده وبيته.

أصغت إلى صوت الطبول التي واصلت برتابة، ثم أطلَّت من شرفتها فرأت نجوم المدينة ساهرة فرحة تستعجل تحركها نحو بيوت الفقراء... ودَّعت مقصورتها بنظرات حزينة، واخترقت الباب متجهة نحو ردهة القصر الرئيسيه، فألقت عليها نظرات متفحصة ، وواصلت نحو البوابة... استدارت وحدَّقت في القصر طويلاً ، وعلى الشرفة التي شهدت قفزات شكيم تسمرت عيناها ومسحت دمعة سرت إلى خدها مسرعة مثل ومضة سيف.

- ترى هل يعود؟... أم تخطفه سمراوات طيبة؟

اعتلت حصانها مسرعة ، وعندما وكزته بقدمها وانطلق نحو المدينة أحسَّت بالنسيم الصباحي يقرص وجهها برعونة... وعند البوابة كان شاحور يقتعد سرج

حصانه وتنفرد نظراته عبر الأفق الليلي لا يلوي على شيء، وخلفه وقف القواد ينتظرون طلتها بشوقٍ ومحبة.

- شاحور بن سرجون، خلتك لن تأتي.

- وعدي أنفذه يا ابنة سمحون.

لمحت منه خشونة لم تعهدها من قبل فحدَّقت فيه، حاذته ونظرت إلى عينيه الصغيرتين فألفتهما تلمعان في العتمة.

- شاحور، هل كنتُ مخطئة حين سألتك؟

لوى وجهه نحوها، فرأت في عينيه بريقًا متلألئًا لا يسقط، ثم أطرق وجلاً وقال:

- لكِ نفسي يا حورا، ما كنتُ شاحور لو أني قصدت إهانتك، لكنه الشوق العظيم إليه والخوف الكبير عليه، لكأنما نفسي تقول لي إنه يرفع يداه إليَّ طالبًا أن أنقذه من وهدة الضياع في مجاهل الصحراء.

ابتسمتْ، اقتربتْ منه ووضعت يدها على كتفه ونظرت نحو القادة، ثم نزلت عن حصانها وتبعها القواد.

ربطوا خيولهم في الحلقات الحديدية المغروسة في سور المدينة واتجهوا نحو الجيش الذي كان يملأ الأزقة والأسطحة بانتظار الحركة.

وعندما كانت حورا تخطو أمامهم؛ كانت الصيحات تعلو مطالبة بالثأر مستعجلة نشوب المعركة.

وأمام معبد سارح الذي أصبح أنقاضًا؛ أطلَّت على ساحة أورسالم الرئيسة ومجدَّت شعب بني كنعان، واستعرضت حَمَلة الرايات، ثم أشارت بيدها، فتفرَّق كلٌّ إلى جهة.

نظرتْ إلى شاحور فألفته ساهمًا.

- رد إليَّ نفسي ولا تفكِّر فيه كثيراً.

- لا أستطيع نسيانه.

- فلينسني تراب البيوت العتيقة إن نسيته، لكن هذا اليوم يوم الفقراء.

- ممجدة أنتِ كما هو ممجد تراب بني كنعان، ليكن يوم الفقراء تاريخًا ننقشه

على مسلات المدينة المسلوبة عندما نقف في ساحاتها معلنين بدء الحصاد وانتهاء عهد الجدب.

- ولتكن سنابلنا في أيدينا نزرعها حيثما نشاء وأنَّى نريد.

التهمت عيناها الأزقة بنظرات سريعة مكتئبة، سارت نحو بوابة المدينة بخُطى وئيدة يتبعها شاحور بن سرجون.

• • • •

ردَّد ظلام الليل صرختها بالتحرك نحو قصر الملك. وخلال لحظات علت في جو المدينة أصوات الطبول وقرعات حوافر الخيل وهمهمة التحرك، وارتفعت في الجو هالة من الغبار أخذت حورا تتنفسه باشتياقٍ ومحبة.

وفي المقدمة كانت راية بني كنعان تقف على سنان رمح يلوحها الهواء مفتخرًا، فتعطي للسائرين خلفها عزمها على مواصلة الرحلة الشاقة... وشيئًا فشيئًا أخذت الأشياء المألوفة في المدينة تغيب عن ناظريها، وتتساقط دمعة حرَّى على خدها مؤذنة بتذكره ومواطن ذكراهما معًا : هنا مررنا بشبابيك المدينة الحزينة لنسمع أصوات طرق السيوف وأيدي بني كنعان تهبط وترتفع استعدادًا ليوم المعركة... وهناك استرقنا السمع إلى حوار مزج بصوت رقيق ناعم وثان متوحش كلاهما بطريقته يستعجل انتهاء طرق السيف ليمتلك أحدهما الآخر، وعندما هوى على السيف أخر الأمر ضحك منتصرًا وقال الليل: آه... وفي هذا الركن جلسنا، يده ملأى بالياسمين يخلِّله في شعري فأمتلك دفقًا من الحب يكفيني طيلة عمري... ويوم غادر حمَّلني جرحًا حبيبًا أذكره فيه كلما لامس النسيم شعرى في أزقة المدينة.

تحدَّث إليها شاحور طويلاً، لكنها لم تسمع كلمة واحدة، وعندما حاذاها وحدَّق في وجهها ببلاهة؛ ضحكتْ ومسحت دمعة بلورية وقفت على خدها كالحدأة.

تفرَّست في القصر عن بُعدٍ وابتسمت، لاح لها جسد سمحون على فرسه أمام القصر يلفّه غبش الفجر بهالة ضبابية محببَّة، فحثَّت الخُطى وازداد الضجيج من خلفها، وعندما وصلت إليه تلقاها بعينين صقيريتين لكن فمه كان ينطق بالسعادة، ولما هوت يده في الهواء معلنًا بدء الزحف؛ غمرتها قشعريرة لذيذة،

فأسرعت إليه وحدَّقت فيه مسرورة لمرآه وهو يرتدي بدلته العسكرية الثقيلة.

- قد فعلتِ ما كنتُ أتمنى يا حورا.

- بقوة سمحون العظيم نفعل، وبإرادته نقاتل.

بعد حديثٍ قصير اختلت بشاحور في رُكن من الجيش وسارا وحيدين.

- أهنالك ريبٌ في أن يعود؟

- مَنْ يدري؟

- لكنك كنت تدري، كان الضوء يلمع من حواف ثوبك المهلهل يوم كنت ترشدنا ما يجب أن نفعل.

- كان ذلك عندما كنتُ ممتزجًا بالأزقة، اليوم ليس لي إلا هذه العدة الحربية وحصاني وسيفي، إن صدقتُ مع سيفي صدقني وإن خذلته رماني في سهول أريحا دون مُنجدٍ أو نصير.

- وماذا عن الملك؟

نظر إلى عينيها باستغراب وقال:

- لقد سبحت إليه في غبش الفجر قبل أن تصلوه، كان قطعة من صخرٍ أصم.

- الآن أجد نفسي في تراب أورسالم وملكها وجيشها، الآن تصبح روحي معلقة في بيوت الفقراء، إن عاد فقد كنتُ له وفيّة مثل وفاء أشعة الشمس لسنابل القمح، وإن لم يعد فقد كانت حورا شكيم.

- لكِ نفسي يا حورا، كنتُ أودُّ سماع هذا منذ زمن.

- قلبي يحدثني أنني أقاتل بسيفه.

- ونفسي تحدثني أن سيفه في يمينى.

وصلهما صوت الملك عن بعد فأصغيا:

- يا جنود فلسطين، أيها الكنعانيون الذين يبيعون راحتهم بالشقاء في سبيل أخوتهم، فليتناول كلُّ طعامه على عجل.

• • • •

عند غروب الشمس لاحت أريحا مثل عروس ترتدي ثوبًا أسود اللون ، هتف الجنود بصوتٍ كالرعد حتى خال كل منهم أن صوته اخترق أبنية أريحا ، ثم أُضيئت المشاعل فوق رؤوس الجِبال ونُصبت الخيام وقرعت الطبول فرحًا وإيذانًا بالوصول.

قالت حورا لشاحور:

- لا تبتعد عني ، قد خلت الأمر هينًا ، لكني لما نظرت إلى المدينة عن بُعد أصابتني قشعريرة قاتلة.
- لن أفارقك لحظة ، سوف ترين أني لاعب سيف ماهر يجيد استعماله عند الضرورة.

نظرا سويًا إلى المدينة النائمة في السهل وقد بدأت الأضواء الخافتة تنبعث منها.

- الآن أعلم لماذا يقاتل الجندي قتالاً شرسًا حتى يموت أو ينتصر ، عندما نظرتُ إليها خلتها قطعة من كبدي يمضغها وحشٌ جائع ، لكأن الموت طائر يغدو ويروح عبر أزقتها لا يردعه أحد.
- غدًا تسقي أريحا زرعها فتعود إليه الحياة.

تحدَّثا في أمورٍ كثيرة ، وعندما تنبها إلى نفسيهما كان الحرس قد بدأ يجول خلال الخيام، وأخذت العيون تغفو استعدادًا لاستقبال ما يخبئه الغيب.
تجولا معًا ، وعند خيمة في كتيبة النساء أصغيا:

- غدًا سأعاملهم كما أمرني سمحون الملك.
- لكنهم سفاحون، فليكن الجزاء من جنس العمل.
- خُلق بني كنعان يأبى أن يرد الإساءة إلا بالإحسان.
- هلا فرقت بين الإساءة والجريمة.
- أيًّا كان الأمر، سأنفذ ما قاله سمحون.
- أنت وشأنك، لكني سأنفذ ما تمليه عليَّ المعركة.
- لا تسألني عن عقاب من لا يطيع الملك.

قاطعتها أخرى:

- لقد علَّمنا الملك كيف ننتزع شوكنا بأيدينا دون مساعدة من أحد ، للملك رأسه ولي رأسي، ولن يرضى أحدٌ بأن يستبدل رأسه بالآخر مهما حدث.

سمعا ضحكًا خفيفًا وتعليقات لاذعة ، ثم استدار الحديث ناحية أخرى ، فران الصوت الحزين على كل ما عداه:

- وشكيم، أيعقل أن يعود يومًا ليرى مجد بني كنعان؟

اهتزَّ جسد حورا مثل قشة في مهب الريح ، ربت شاحور على كتفها وهمس لها أن تصغي...

- قلبي يحدثني أن سمحون أرسله في رحلة الموت هذه.

تداخلت همسات الاستنكار مع التعليقات فلم تعد تميِّز شيئًا ، ثم وضح صوت من خلال الهمهمة:

- كانت تلك رغبة شكيم، ولم تكن رغبة الملك.
- لو كان جادًا في أمر عودته لبعث إليه الرُّسل عندما بدأ اليأس من عودته يبين.

حدَّقت حورا في وجه شاحور فبادلها النظر، قالت هامسة:

- ألا يمكن أن تكون صادقة؟
- دعينا نستمع، آراء بني كنعان يجب أن تُحترم.

صمتت، وجاءهما الحديث أكثر حدة:

- ويقولون إن بعثه في رحلة الخطر هذه لإبعاده عن حورا، كان الملك يتظاهر بالرضى بينما عقله يعجز عن تفسير ما حدث.
- يا لكِ من غبية، لكن حورا باركت هذا الرحيل.
- لو كانت حورا تعلم مجاهل الصحراء ومخاطرها ما وافقته.

ضحكت أخرى وقالت:

- من يدري، ربما اقتنعت حورا بوجوب ضياعه في الصحراء فتظاهرت له بالرضى.
- ومن قال إنه ضائع؟ ربما احتجزه فرعون لأمرٍ ما.

وضعت حورا كفيها على عينيها، وغمغمت:

- أيعقل هذا يا شاحور، أم أنني أحلم؟
- دعكِ من هذا يا حورا ، كلٌّ يفسِّر الأمر على هواه ، ولنستمع إليهن حتى النهاية.

وصلهما الصوت ثانيةً واضحًا وحزينًا:

- لو كنتُ موضع حورا لاخترقتُ الصحراء بحثًا عنه وما توانيت لو وقف العالم كله في وجهي.
- لو فعلت لانتهى كل شيء منذ زمن، وعلمنا هل هو حي أم في عِداد الأموات.

قالت الأخرى:

- دعونا من هذا، لننم، سنقاتل غدًا بكل طاقتنا.

نظر شاحور إلى وجه حورا فرآه مبللاً بالدموع، حدَّق فيها فأطرقت:

- هل سمعت يا شاحور؟ لقد كنتُ غبية عندما لم أفعل ما فكرنَّ به.
- أنتِ في أرض المعركة، لتكن همومك مدفونة ريثما نرفع أعلامنا فوق المدينة.
- نسيان هذا يعني إلغاء رأسي، وهو ما زال بين كتفي مثل جبل، لكنه أجوف.
- يا لكِ من مرهفة الحس يا حورا.
- ترى لو فعلتُ، هل كنتَ تشجعني؟
- يا لذكاء بني كنعان، يحسب الرجل نفسه حكيمًا ثم يأتي طفلٌ ليعلِّمه الحكمة.
- حدثتني ذات يوم أن طفلاً من بني كنعان أوحى لسمحون بأن يهاجم ولا ينتظر قدوم العدو إليه.
- هذا صحيح.
- إذن كُن على صواب.
- ليس في كل ما قلنَّه.

جرَّها من يدها وجاسا خلال الخيام...

قال صوتٌ رقيقٌ في خيمة نصبت تحت زيتونة:

- لو قايضتُ دمي بالعار لكفينا بني كنعان شر القتال.
- لكن يوشع لا يكفيه دمك، إنه يبحث عن دم شكيم.
- شكيم؟ هو إذن يبغي دم الكنعانيين جميعًا.
- بالطبع، لكن حورا اليوم شكيم، فلندافع عنها وقت المعركة.
- لن تحتاج إلى من يدافع عنها، لقد أصبحت أظافرها أقوى من الرماح.
- إنها الدم الذي يغذِّينا بالحياة.

تثاءب صوتٌ في الخيمة:

- دعونا ننام، لقد ثقلت أجفاننا وغدًا يوم آخر.

ثم ران الصمت.

نظر شاحور إلى وجه حورا فألفاه متلألئا مثل النجوم، أمسك بيدها وانتقلا إلى مكانٍٍ آخر.

• • • •

ترامى إلى مسمعيها الهمس خارج خيمتها فحدَّقت في العتمة، ماست على شفتيها ابتسامة حزينة، فلوت عنان أفكارها نحوه، ثم هدهد وجهها النسيم من خلال شق الخيمة فتراخت عيناها وحملتها الأكف هدية لتقدَّم لشكيم فلاح حبرون الذكي، وداهمتها الأحلام حنونة تارة وقاسية أخرى، وعندما وصلتها الأصوات والحركة عند الصبح كانت تحدِّق في الخيمة بعينين أصابهما الهلع.

مسحت وجهها بقليل من الماء وعادت إليها ابتسامتها، غير أن صورة شكيم المقهور في الحلم عادت فلوَّنته بالحُزن والكآبة، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى سمعت رغاء الإبل وصهيل الخيل وأصوات الجنود استعدادًا للتحرك، فنهضت، وعن بُعدٍ رأت رسول العبريين تجرُّه الأيدي لتودعه بعيدًا عن سمحون الملك.

هرع الليل إليها ثانيةً... ازدادت ضربات قلبها، والمساء يغط بثقله على رؤوس الجبال المحيطة بأريحا، عولت ألا تنام حتى لا تدهمها الأحلام، وافتقدت شاحور الذي غاب عنها طيلة النهار دون أن تلمح له من أثر.

تجمعت أحزانها في رأسها مثل الدبابيس تخزنها في كل آونة تذكره فيها، غير أنها ابتسمت وهي تستمع إلى أصوات الغناء قادمة من خيام النساء، فقامت من فورها وارتدت عدتها الحربية أملاً في قضاء بعض الوقت في فرحٍ وانسجام، وما كادت تخطو خارج الخيمة حتى أتاها صوت الملك رقيقًا حنونًا مثل صوت ناي شكيم:

- أهذا أنتِ يا حورا؟ لكِ نفسي فقد شُغِلتُ اليوم عنكِ بأمور الجند وتعبئة الكتائب.
- هذه هي مهمتي يا أبتاه.
- ماذا أفعل وأنتِ تغلقين على نفسك الخيمة، يلفعك الحزن وتنتابك الهواجس، من كانت له رقابة الجُند وجب أن يقوم بها على خير وجه.

ضحك الملك، ثم اقترب منها وربت على كتفها بحنوٍ وقال:
- أترك لكِ شاحور الطيب فلا يغادركِ أبدًا.
- شاحور، أين هذا العجوز الطيب؟
- منذ الصباح وهو يعمل مثل النحلة، قد كان يميني في إيصال رسائلي إلى القادة.

تقدَّم شاحور إليها مبتسمًا، وما أن وصل إليها حتى غادر الملك في جمعٍ من قواده إلى حيث الخيام القريبة.

- شاحور، أتتركني وقد وعدتَ أن لا تغادرني؟
- كنتِ نائمة يا حورا فلم أشأ إزعاجك، وقد شغلتني في هذا اليوم عنكِ أمورٌ كثيرة.
- حسنًا، أتعد أن لا تغادرني دون علمي؟
- أعدك.

ثم وضع يده على مقبض سيفه وابتسم.

صرخ جندي كنعاني:
- يا بني كنعان، شكيم يقاتل معنا، أقسم أنني رأيته.

اخترقتْ الصرخة رأسها، وعندما اصطدمت عيناها بعينيه صرخت وسقط السيف من يدها، فحماها بجسده.

هوت إلى جسده السيوف، لكن عدته الحربية كانت منيعة، التقطت حورا سيفها وشرعت تقاتل إلى جانبه.

وفي غضون ذلك، سرت إلى أجواء المعركة آلاف الأصوات تصرخ:
- يا بني كنعان، شكيم يقاتل معنا، شكيم يقاتل وفي يده سيفٌ من النحاس.

• • • •

المؤلف في سطور

- رئيس تحرير جريدة (صوت العروبة) التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من ثلاثين عامًا باللغة العربية.
- عمل محرِّرًا صحافيًّا في لبنان وفلسطين والأردن.
- كتب في معظم الصحف والمجلات العربية في : مصر ، لبنان ، الكويت ، العراق ، الأردن ، ليبيا ، الصحافة العربية في لندن.
- صـدر له :

- أوراق من مفكرة مناضل : قصص قصيرة . دار الحرية ، بغداد
- خناس المخيم : قصص قصيرة . دار العودة ، بيروت
- نقوش على جدران الزنزانة : قصص قصيرة . دار العودة ، بيروت
- عزف منفرد على قماش الخيمة : قصص قصيرة . دار الحرية ، بغداد
- الصعاليك : رواية . الولايات المتحدة الأمريكية
- البراق : قصص قصيرة . الولايات المتحدة الأمريكية
- وثيقة سفر فلسطينية : مسرحية . الاعلام الموحد
- غروب في مطلع الشمس : دار نور للنشر . ألمانيا
- صلي ع النبي يا جورج : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة
- رحلتي إلى أمريكا : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة

- الشيطان يموت مرتين : دار علوم الأمة للاستثمارات الثقافية

- صهيل الخيول الكنعانية : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة

■ البريد الإلكتروني : wrabah@arabvoice.com



Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.ne